(١) الميلاد والأصل والصورة والنشأة
واعتناقه الإسلام

(٢) باقة المناقب التى أثراها الإسلام

(٣) أمـين الأمـــــة: المبشر بالجنة

الميلاد والأصل والصورة والنشأة

اتفقت الروايات على أن أبا عبيدة بن الجراح توفى بالشام سنة ١٨هـ / ٦٣٩م، عن ثمانية وخمسين عامًا، إبان طاعون عمواس الذى حل آنذاك بالشام، ورفض أبو عبيدة وقتها دعوة أمير المؤمنين أن يلحق به فى المدينة، مؤثرًا أن يبقى بين جند الله من المسلمين، وبقى وسطهم حتى مات بالشام ودفن بها ـ وأرجح الآراء أن أبا عبيدة كان فى نحو الأربعين من عمره يوم بدر سنة ٢هـ / ٦٢٣م، وأنه كان فى السابعة والعشرين يوم أسلم، وعلى ذلك يكون ميلاده قبل الهجرة بنحو ٣٨ أو ٣٩ سنة، أى نحو سنة ٥٨٢م.

نسبه

كان اسمه فى الجاهلية عامرًا، أما كنيته فكانت أبا عبيدة، وبها اشتهر، ولقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمين الأمة.. يجتمع نسبه مع الرسول عليه السلام فى فهر بن مالك، وينسب إلى فهر فيقال: القرشى الفهرى.. وبنو فهر أحد الأفخاذ القرشية القوية، أما أمه، فهى أميمة بنت غنم من بنى الحارث، وأثبت ابن قتيبة إسلامها.

وفى تفاصيل هذا النسب، أورد ابن سعد صاحب الطبقات الكبرى، ضمن العشرة المبشرين بالجنة، والمحب الطبرى فى «الرياض النضرة فى مناقب العشرة»، أوردا أن أبا عبيدة هو: عامر بن عبد الله بن هلال بن أهيب بن ضَبّة ابن الحارث بن فهر، وأمه أميمة بنت غنم بن جابر بن عبد العزى بن عامرة بن عميرة، وأمها: وَعْد بنت هلال بن أُهيب بن ضَبّة بن الحارث بن فهر، وأن أبا عبيدة كان له من الولد: يزيد وعُميْر وأمهما هند بنت جابر بن وهب بن ضباب بن حُجير بن عبد بن مَعيص بن عامر بن لؤى، غير أنهما توفيا بغير عقب.

صورته وصفته

كان رضى الله عنه طويلاً نحيفًا، معروق الوجه، خفيف اللحية، أثرم الثنيتين، وذكر ابن الضحاك وكتب السيرة فى سبب ثرمه، أن ثنيتيه سقطتا وهو ينزع حلقتى المغفر اللتين انغرستا فى وجنتى الرسول ﷺ يوم أحد، فطار رضى الله عنه صوبه، وسبق الجميع إليه، ورجا أبا بكر وعمر أن يتركاه ينزع الحلقتين من وجنتى الرسول ﷺ، فسقطت ثنيتاه تباعًا وهو ينزع الحلقتين. وصف الصديق أبو بكر هذا المشهد فقال:

«لما كان يوم أحد، ورُمِى رسول الله ﷺ حتى دخلت فى وجنتيه حلقتان من المغفر، أقبلت أسعى إلى الرسول، وإنسان قد أقبل من قبل المشرق يطير طيرانًا، فقلت: اللهم اجعلْه طاعة، حتى إذا توافينا إلى رسول الله، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح قد سبقنى، فقال: أسألك بالله يا أبا بكر أن تتركنى فأنزعهما من وجه رسول الله، فتركته، فأخذ أبوعبيدة بثنيته إحدى الحلقتين فنزعها وسقط على الأرض وسقطت ثنيته معه.. ثم أخذ الحلقة الثانية بثنيته الأخرى فسقطت.. فكانَ أبو عبيدة أثرم..».

وجاء بالطبقات الكبرى لابن سعد، وفى رواية لمحمد بن عمر مرفوعة إلى سندها، أن أبا عبيدة: «كان رجلاً نحيفًا، معروق الوجه، خفيف اللحية، طوالاً، أَجْنَأْ (أحدب) أثرم الثّنيّتَيْن».

وذكر ابن الأثير فى أُسْد الغابة[1]، نقلا عن الرواة، والمحب الطبرى فى «الرياض النضرة فى مناقب العشرة»، أنه ما رُئِىَ أهتم قط، أحسن خلقة (صورةً) منه».

نشأته

لم ترد عن نشأة أبى عبيدة إلاّ أخبار قليلة، ومن الراجح أنه نشأ كما نشأ لداته من أبناء قريش، ولكن لم يرد ما يفيد أنه قد عاش مثل معظمهم حياة المترفين

(١) أُسْد الغابة لابن الأثير ١٢٨/٣

الطليقة من كل قيد، ونعرف أنه حينما اكتمل شبابه اشتغل بالتجارة كما اشتغل قومه، وقيل إنه أخذ يتقلب فى أرجاء شبه الجزيرة العربية تاجرًا يتاجر فى أنواع التجارة التى كانت عوضًا للقرشيين ـ مع مزار البيت العتيق ـ عن جفاف الأرض وقسوة الطبيعة، وقيل إنه رحل كغيره إلى اليمن فى رحلة الشتاء، وذهب إلى الشام فى رحلة الصيف، وأنه فيما عدا التجارة والترحال فيها، عاش بمكة ـ قبل الإسلام ـ عيشة خاملة، ويقال إنه كان يعاف ما كان يقبل عليه شباب قريش وسادتها من مجون، وإنه لم يكن بطبعه ميالاً إلى البطش أو التجبر أو التعالى والكبرياء، وإنما كان دمثًا هادئًا لينًا، تجلى ذلك بوضوح فيما اشتهر من مناقبه فى الإسلام.

لا مراء أن الإسلام صقل أبا عبيدة، ولكنا نستطيع أن نستنتج من أمارات وشواهد كثيرة، أن السجايا الإسلامية صادفت فى أبى عبيدة أرضًا طيبةً مهيأة للاستقبال، فشكلت صفحة وجدانه صورةً نادرة للحلم والرفق واللين والدماثة والتواضع والإيثار وإنكار الذات، فلا يكاد يمضى موقف من المواقف التى عرضت له بعد إسلامه، وأوردتها كتب السير والتراجم، إلاّ ونرى صورة ناطقة للمثل الأعلى فيما تميز به هذا الصحابى الجليل من شمائل.

إسلامه

كان أبو عبيدة من السابقين الأولين إلى الإسلام، أسلم مبكرًا قبل الدخول إلى دار الأرقم بن أبى الأرقم، كانت قريش فى ذلك الوقت تتهامس همسًا متقطعًا بأن شيئًا ما قد طرأ، وأن ذلك ليس بمعزل عن الصادق الأمين محمد بن عبد الله الذى كان يعزف عن لهو قريش ومجونها، واعتاد أن يخلو إلى نفسه فى غار حراء، ولحظت عليه قريش ما رابها فى أمره حين رأته يركع ويسجد بالبيت الحرام على غير ما ألفوه فى عبادة الأصنام بالبيت العتيق، وتسرب أن من حوله زوجته خديجة بنت خويلد، وربيبه على ابن عمه أبى طالب، وصديقه أبو بكر بن أبى قحافة، ومتبناه زيد بن حارثة.. ولم يكن أبو بكر يتحدث بما يسمعه من محمد

الأمين إلّا سرًّا فى الخفاء، وفى حرص شديد، ولدى أصدقائه المقربين.. وتحدث أبو بكر، وكان رجلاً محببًا إلى قومه لخلقه ورجاحته ودماثته، وأعلمهم بقريش التى ينتمى إلى تيم أحد بطونها، وأنسبهم لها، تحدث إلى عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، فصدقوا ما نقله إليهم أبو بكر عما جاء به رسول الله ﷺ، واستجابوا له وآمنوا بالدعوة، فكان هؤلاء مع أبى بكر، وعلى، وزيد بن حارثة، الثمانية الأول الذين نقل ابن إسحق وابن هشام أنهم سبقوا إلى الإسلام.

ولعل أبا عبيدة، تسامع آنذاك بالهمس الدائر فى مكة، وملأته كغيره - التساؤلات التى تدور بين القرشيين، وكان أبو عبيدة آنذاك فى نحو السابعة أو الثامنة والعشرين، رجل من أوساط قريش، لا هو بالغنى ولا هو بالفقير، معروفًا عنه العقل واللين والرزانة، فتحدث إليه صديقه أبو بكر، بمثل ما تحدث به إلى عثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف، وما تحدث به إلى عثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وأبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد، فطفق أبو عبيدة يفكر مليًا فيما تحدث به إليه صديقه الأثير أبو بكر، ويمعن النظر والتفكير فيما نقله إليه عن دعوة محمد الذى يعرفه صادقًا أمينًا تتحدث قريش ومكة بصدقه وأمانته وكريم خلقه. فلم يطل به التأمل، وسرعان ما انبثق نور الدعوة فى قلبه، حتى إذا ما التقى أبا بكر، رأى الإسلام على وجهه، فسأله أبو بكر سؤال العارف المطمئن للجواب الذى لم يخب ظنه فيه، فأعلن له أبو عبيدة ما هداه إليه قلبه وعقله، وسارع معه إلى حيث أسلم مع عثمان بن مظعون بين يدى رسول الله ﷺ، فكان أبو عبيدة من العشرة الأوائل الذين سبقوا إلى الإسلام وتلبية دعوته، من قبل دخول الدعوة دار الأرقم ابن أبى الأرقم.

أدرك أبو عبيدة بفطرته السليمة، أن الله تعالى لا يمكن أن يكون إلاّ واحدًا، ورأى فى صدق وأمانة محمد ونور دعوته، نقيض ما يلفظه طبعه من عبادة

الأصنام، ومن لهو سادة وفتيان قريش ومجونهم فى ملاهى مكة. فكان إسلامه الذى سُرَّ به رسول الله ﷺ إسلام المطمئن إلى صدق الدعوة الرافض لما يلفظه عقله من صور الوثنية التى لا يقرها العقل، وتأباها الفطرة السليمة.

وبدأ بإسلام أبى عبيدة، عهد جديد فى حياته، لم يعد يرى فيه سوى الأمانة التى استودعه الله إياها لينفقها فى مرضاته من يوم مد يمينه معلنًا إسلامه ومبايعًا لرسول الله. وستظل هذه «الأمانة» معلمًا حاضرًا بارزًا فى طبع وخلق وسلوك وعمل أبى عبيدة منذ إسلامه.

* * *

بين الجاهلية والإسلام

تكاد لا توجد أخبار عن أبى عبيدة فى الجاهلية، إلاّ ما قيل عن نسبه فى قريش، وصداقته بأبى بكر بن أبى قحافة، الذى دعاه إلى الإسلام، فكان ضمن الثمانية أو العشرة الأول الذين دخلوا الإسلام.. وقد تقدم أنه كان يقترب من الثلاثين حين أسلم، مكتمل الرجولة، وأنه اعتنق الإسلام عن اقتناع بعد تفكير غير طويل، ونفهم من ذلك أنه كان مكتمل النضج أيضًا، راجح العقل، فلم تطل به المقارنة بين ضلال الشرك وعبادة الأصنام، وما كان يجرى فى دروب مكة من مجون، لم يعرف عنه المشاركة فيه ـ وبين التوحيد المؤمن بإله واحد منزه، خالق الكون، ورب كل شىء، قادر عظيم، عزيز مقتدر، ليس كمثله شىء، ودين قائم على الهداية إلى الصراط المستقيم، ويدعو إلى مكارم الأخلاق وجميل السجايا والشمائل.

ونفهم أنه فضلاً عن رجاحة عقله التى هدته إلى هذه الفوارق، حتى التمع نور الإسلام سريعًا وضاحًا فى قلبه. أنه لم يكن مكابرًا فى الحق، فلم يعتصم بما وجد عليه آباءه وأجداده، ولم يأخذه العناد الذى أخذ غيره، ولم تأسره المصالح الضريرة التى درج عليها القرشيون من الاستفادة المادية والمعنوية من اختلاف العرب إلى البيت العتيق للتبرك ولعبادة الأوثان والحج الغارق آنذاك فى الشرك والوثنية، ولم يبال بما كان يصاحب ذلك من سيادة قريش وسط العرب، حتى تنازعت بطونها على سدانة البيت التى كانت مناط الرئاسة القرشية التى يدين بها حجاج البيت الحرام وقصاد مكة، واحتالت قريش لذلك بتقسيم مفاخر شرف هذه السدانة بين بطونها وزعمائها. فكانت لهاشم سقاية الحج، ولأمية راية الحرب، ولنوفل الرفادة وهى إعانة الحجاج المنقطعين بالمال، ولعبد الدار السدانة والحجابة واللواء، ولبنى أسد المشورة أو رئاسة مجلس الشورى فى الأمور المهمة، ولبنى تيم الديات والمغارم، ولبنى مخزوم القبة وهى مجتمع الجيش

والأعنة وهى قيادة الفرسان، ولبنى عدى السفارة، ولبنى جمح الأيسار والأزلام، ولبنى سهم الحكومة والأموال المحجرة، وهى وظائف ظلت هذه البطون القرشية تتداولها جيلاً بعد جيل إلى ظهور الإسلام.

لم يستوقف أبا عبيدة شيء من ذلك، ولم يدعه إلى مكابرة أو عناد، فدل بذلك على نضج عقلى، وعلى نضج أيضًا فى الأخلاق والسجايا والطباع، وهى صفات نستطيع أيضًا أن نستنتجها بلا أى تعسف ـ من صداقته الوطيدة بأبى بكر، وكان معروفًا بالحكمة والعقل والرزانة والكرم والدماثة، وهى صداقة تدل على تقارب بينهما فى الصفات والخصال، وعلى توافق فى الخلق والسلوك، وهى صداقة ظلت متينة ممتدة بين الرجلين فى الإسلام.

ونستطيع أيضًا أن نستنتج من بلائه اللاحق فى الإسلام، وما خاضه من معارك وبذله من جهاد، وما تولاه من قيادة، أنه كان فارسًا شب من صباه على فنون الضرب والفروسية، وعلى شيء ملحوظ من شمائل الرئاسة، كما كان يتحلى بطباع حميدة زاد الإسلام صقلها وأضاف إليها، حتى عرف الرجل فى الإسلام بمجموعة ثرية من المناقب صاحبت رحلته اللافتة فى الإسلام حتى قضى نحبه بين جنده بالشام، عام ١٨هـ عن ثمانية وخمسين عامًا.

المناقب

أمين الأمة

أجمعت المصادر والمرويّات، على أنه أحد العشرة المبشرين من رسول الله بالجنة، وعلى محبته صلى الله عليه وسلم، وتقديره الكبير له، وأنه عليه السلام كان يثق به ويثنى عليه، وأسبغ عليه الصفة الرفيعة التى طارت إلى الآفاق واقترنت بالرجل حيًا وميتًا.. إنه «أمين الأمة».. أمين الله، وأمين رسوله، وأمين الأمة.. أمسك عليه الصلاة والسلام يومًا بيمينه، وقال للمسلمين: «إن لكل أمة أمينًا، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».. تعددت الروايات فى ذكر وتعداد مناقبه، وإكبار النبى والخلفاء الراشدين وكبار الصحابة له، ومحبتهم إياه.

قدم إلى النبى عليه الصلاة والسلام بالمدينة، وفد كبير فى نحو ستين من نصارى نجران، فيهم العاقب أميرهم وصاحب مشورتهم واسمه عبد المسيح، والسيد القائم بأمورهم واسمه الأيهم، وإمامهم وحبرهم وأسقفهم، وكبار النصارى.. جاءوا إلى المدينة يعرضون على النبى عقيدتهم. ودخلوا معه ﷺ فى حوار طويل، قالوا له وسمعوا منه، واحتدم الحوار بينهم وبين اليهود، ومكثوا بالمدينة لأيام يتحدثون بما يريدون ويناقشون اليهود أيضًا، ويسمعون مع اليهود حديث محمد ﷺ.. يقول لهم: «لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا تسرقوا، ولا تسحروا، ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان فيقتله، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة».. ويشرع رئيسهم «العاقب» فى طلب «الملاعنة»، وتحدث بذلك إلى قومه، فيرده «الأيهم» القائم بشئونهم عن ذلك، وانتهى بهم الأمر إلى النبى عليه السلام، يطلبون إليه أن يبعث معهم رجلاً أمينًا إلى نجران، ليرشدهم فيما فيه يختلفون، ويعلمهم، فاستبشر صلى الله عليه وسلم بذلك، وقال لهم فى رفق ومودة: «لأبعثن معكم فى العشية رجلًا أمينًا.. حق أمين، حق أمين، حق أمين».

وفى العشية جاء وفد نجران إلى النبى ﷺ بمجلسه بين صحابته بجوار المسجد.. يترقبون أن يعين لهم الأمين الذى وعدهم بإرساله معهم، وجعل الصحابة يستشرفون ويشرئب كل منهم برأسه أملا أن يراه النبى ﷺ فيقع اختياره عليه.. لعله يظفر بكرامة الاختيار وكرامة الوصف الذى عينه النبى عليه السلام لمن سيبعثه معهم.. يترقب الجميع وهم لا يستطيعون إخفاء ما بهم من أشواق لنيل هذه الكرامة.. أن يكون هو الأمين، حق أمين، حق أمين، حق أمين ـ الذى جرى به وصف الرسول عليه السلام ووعده لوفد نجران. حتى قال أبو بكر الصديق: «فما تعرضت للإمارة غيرها، فرفعت رأسى لأريه نفسى».. وحتى قال الفاروق عمر بن الخطاب: «ما أحببت الإمارة قط حبى إياها يومئذ.. رجوت أن أكون صاحبها.. جئت إلى الظهر مهجرًا، فلما صلى بنا الرسول ﷺ

صلاة الظهر، وأخذ ينظر يمينه ويساره، أخذت أتطاول له ليرانى.. فلم يلتمس بنظره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه.. فذهب بها أبو عبيدة».

أشار النبى عليه الصلاة والسلام إلى أبى عبيدة، وناداه: «قم يا أبا عبيدة».. ثم طفق يقول لوفد نجران: «هذا أمين هذه الأمة»:.. ثم يقول له: «اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه».

وأخرج البخارى فى باب مناقب أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه، وكذلك مسلم، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل أمة أمينًا، وإن أميننا أيتها الأمة ـ أبو عبيدة بن الجراح».

وأخرج البخارى عن حذيفة بن اليمان، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ، قال لأهل نجران: «لأبعثن ـ يعنى عليكم، أمينا ـ حق أمين، فأشرف الصحابة، فبعث أبا عبيدة رضى الله عنه».

وأورد المحب الطبرى، صاحب «الرياض النضرة فى مناقب العشرة»، أورد عن أنس بن مالك رضى الله عنه الحديث الأول ذاته الذى أخرجه البخارى، وأضاف نقلاً عن أنس، أن أهل اليمن عندما قدموا إلى الرسول ﷺ قالوا له: «ابعث معنا رجلاً يعلمنا».. فلما جاءوه ليعين لهم من سيبعثه معهم، أخذ عليه الصلاة والسلام بيد أبى عبيدة وقال لهم: «هذا أمين هذه الأمة».. وذكر المحب الطبرى أن هذا الحديث أخرجه أيضًا أبو عمر، وصاحب الصفوة، وذكر بقية الحديث..وأخرجه أيضًا، باللفظ ذاته، محمد بن سعد فى الطبقات الكبرى، وقال: إن السيد والعاقب ـ زعيمى نجران ـ قالا للرسول ﷺ: «يا رسول الله، ابعثْ معنا أمينًا»، فقال: سأبعث معكم أمينًا حق أمين. قال: فتشرف لها الناس. فبعث أبا عبيدة بن الجراح»، ورواه ابن الأثير فى ترجمته لأبى عبيدة[1].

وهذه الواقعة محل إجماع، وتبدو قيمة دلالتها، فضلاً عن دلالة الاختيار والثقة النبوية بأبى عبيدة، وما أسبغه عليه النبى عليه الصلاة والسلام من صفة،

(١) أسد الغابة. ابن الأثير. ج٣. ترجمة أبى عبيدة (٢٧٠٥).

أن ذلك كان فى أول عهد المسلمين بالمدينة، ولم يكن فى السنة التاسعة أو العاشرة للهجرة كما قال بعض المؤرخين،.. إذ أرجح الروايات أن ذلك كان فى السنة الثانية للهجرة، قبل بدر، وعلى ذلك اجتمع رأى الأستاذين الدكتور محمد حسين هيكل فى «حياة محمد»، والدكتور شوقى ضيف فى كتابه: «محمد خاتم المرسلين».. وقطع الأستاذ هيكل بأن ذلك كان فى مؤتمر الأديان الثلاثة: الإسلام والنصرانية واليهودية الذى عقد بالمدينة سنة ٢هـ، وهو ما أكده أيضًا الدكتور شوقى ضيف، وأورد الدكتور هيكل أن هذا المؤتمر بالمدينة، كان فى مرحلة متقدمة مزامنة للأذان والقبلة وفرض الصيام، واحتدام الجدل مع اليهود بالمدينة فى السنة الثانية للهجرة، وأورد الأستاذ الدكتور شوقى ضيف المحقق المدقق، أورد فى حديثه عن مؤتمر الأديان الثلاثة [1]، أنه فى أثناء احتدام الجدل بين الرسول واليهود فى السنة الثانية للهجرة، قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد من نصارى نجران، فيه العاقب أميرهم وصاحب مشورتهم واسمه عبد المسيح، والسيد القائم بأمورهم وشئونهم، واسمه الأيهم، وإمامهم وحبرهم وأسقفهم واسمه أبو حارثة. وكان الوفد مؤلفًا من ستين شخصًا نصرانيًا، ودخلوا على رسول الله مسجده، وأخذوا يعرضون عليه عقيدتهم وأن المسيح هو ابن الله، وهو ثالث ثلاثة، وجاء اليهود يستمعون إلى حوارهم وأخذوا يناقشونهم مع الرسول ﷺ فى عقيدتهم.. وبذلك قام فى المدينة مؤتمر كبير للديانات الإلهية الثلاث: اليهودية وهم على إنكارهم للإسلام، والمسيحية وكل ما يتصل بعقيدتها النصرانية وما يقولون به من ألوهية عيسى وأن الله ثالث ثلاثة، والإسلام: وما يعتقد به المسلمون من وحدانية الله وحدانية مطلقة. وكان أول سؤال وجهه وفد نصارى إلى رسول الله ﷺ بمن يؤمن المسلمون من الرسل ويؤمن معهم؟، فتلا ﷺ عليهم: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا

(١) محمد خاتم المرسلين. د. شوقى ضيف. ص ١٨٢/١٨٥.

نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].. فلما ذكر عيسى، جحد اليهود نبوته، وقالوا: «لا نؤمن بعيسى بن مريم ولا بمن آمن به».

بينما احتج النصارى على ألوهية عيسى، بأنه ليس له أب. مما يدل على أنه ليس خالص البشرية. ولذلك قالوا إنه ابن الله، فاحتج عليهم النبى ﷺ بآدم. وأنه ليس له أب ولا أم، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وزعم اليهود افتراءً على إبراهيم، أنه كان يهوديًا، ورد عليهم النصارى بأنه كان نصرانيًا، فأبان لهم الرسول عليه السلام أنه ما كان يهوديًا ولا نصرانيًا إذ عاش قبل موسى وعيسى، وإنما كان حنيفًا وملته الحنفية. وهى ملة التوحيد والإسلام والمسلمين.. يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٨].

مضى هذا الحوار عدة أيام، فى هذا المؤتمر الدينى الثلاثى بالمدينة، وهو الذى انتهى ببعث أبى عبيدة مع وفد نجران، وبعد أن عدلوا عن المباهلة والملاعنة، طالبين إلى النبى ﷺ أن يبعث معهم رجلاً أمينًا يشرح ويوضح لهم الإسلام. فدل ذلك على أن بعث أبى عبيدة إنما كان فى أعقاب هذا المؤتمر الدينى الثلاثى سنة ٢هـ، وهو ذاته ما أكده الدكتور هيكل أيضًا فى كتابه الفاروق عمر.

وواضح من المقارنات التى تقصيتها، وكان ذلك أيضًا بمناسبة إيرادى هذه الواقعة بالتفصيل بالمجلد الثانى من كتاب «السيرة النبوية فى رحاب التنزيل»[1]، أن رأى من أسند من المؤرخين هذه الواقعة إلى سنة ٩ أو١٠هـ كالطبرى وابن كثير

(١) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل ـ للمؤلف. المجلد /٢ ـ ص ١٣١/١٤١.

وابن عبد البر والذهبى ـ يرجع إلى الخلط بين هذا المؤتمر الدينى الثلاثى الذى شارك فيه وفد نصارى نجران وجرى بالمدينة وشارك فيه اليهود فى السنة الثانية للهجرة قبل نزوحهم عنها فى أعقاب غزوة بنى قريظة التى تلت غزوة الخندق فى العام الخامس للهجرة. وبين عام الوفود الذى امتد بين سنتى ٩ و ١٠ للهجرة، واختلفت فيه وفود العرب إلى المدينة، ومنهم وفد من نجران، لإعلان أو تأكيد مبايعتهم رسول الله على الإسلام. ولو التفتوا إلى ما أورده ابن إسحق أقدم كتاب السيرة، من فصل وتمييز واضح بين الواقعتين، لما وقعوا فى هذا الخلط. وقد تنبه الدكتور هيكل إلى ذلك، فأورد بكتابه «حياة محمد»، واقعتين لمقدم وفد من نجران إلى المدينة، الأولى التى فيها حوار الأديان وانتدب فى نهايتها أبو عبيدة للذهاب مع الوفد [١]، والثانية المتأخرة فقد أوردها ضمن عام الوفود سنة ١٠هـ[٢].

ولو رجع من خلطوا بين الواقعتين ودمجوهما فى واقعة واحدة أرجعها بعضهم إلى عام ٩هـ، والبعض ومنهم الطبرى وابن الأثير وابن كثير ـ إلى عام ١٠هـ لورجعوا إلى ما كتبه ابن إسحق وابن هشام أقدم كتاب السيرة النبوية، لميزوا بين الواقعتين ولما خلطوا بينهما، ولتنبهوا إلى أن اليهود كانوا قد أجلوا إجلاءً تاما عن المدينة فى عام ٥هـ، بعد غزوات بنى قينقاع فى النصف الثانى من عام ٢هـ، وبنى النضير فى عام ٤هـ، ثم بنى قريظة فى عام ٥هـ، بل كانوا فى خيبر عند غزوها فى المحرم أول عام ٧هـ، فلو تنبهوا لذلك، لما دمجوا الواقعتين، ولفطنوا لاستحالة أن تعزى واقعة الحوار الدينى الثلاثى بالمدينة، والذى اشترك فيه اليهود بكثافة، إلى عام ٩ أو ١٠هـ حيث لم يكن لليهود أى وجود بالمدينة فى هذا الوقت، ناهيك عن الاشتراك المكثف فى هذه المحاورة الشديدة، التى كانت بداهة قبل جلاء آخرهم عن المدينة فى السنة الخامسة للهجرة.

---

(١) حياة محمد – الدكتور محمد حسين هيكل. ص ٢٥١ ـ ٢٥٣.

(٢) حياة محمد ـ الدكتور محمد حسين هيكل. ص٤٨١/٤٨٢.

إن أقدم ما وصلنا مكتوبًا عن السيرة، يرجع إلى ابن إسحق، وابن هشام الذى روى ـ بتصرف أحيانًا ـ عن سيرة ابن إسحق، وقد أورد ابن هشام تفاصيل واقعة الحوار الدينى الثلاثى متقدمة فى المجلد الثانى من السيرة [1]، قبل غزوة بدر الكبرى التى وقعت فى رمضان ٢هـ، وأوردها ٢/٢٤٤ وما بعدها من طبعة دار الشعب، وأوردها تفصيلاً نقلاً عن ابن إسحق. ونقل عنه «أن وفد نصارى نجران قدم على الرسول فى ستين راكبًا، وأربعة عشر رجلاً من أشرافهم، منهم ثلاثة نفر إليهم يئول أمرهم: العاقب، أمير القوم، وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذى لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح، والسيد، لهم ثمالهم (أى أصلهم الذى يقصدون إليه)، وصاحب رحلهم ومجتمعهم، واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة، أحد بنى بكر بن وائل، أسقفهم، وحبرهم وإمامهم، وصاحب مدراسهم. وكان أبو حارثة قد شرف فيهم، ودرس كتبهم، حتى حَسُن علمه فى دينهم، فكانت ملوك الروم من النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه، وبنوا له الكنائس، وبسطوا عليه الكرامات، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم، وروى ابن هشام لقاءه ولقاء الوفد بالرسول ﷺ، وما جرى فيه من حوار.

ويذكر أيضًا، أن الذهبى فى تاريخ الإسلام، نقل واقعة وفد نجران الأولى، نقلاً دقيقًا عن رواية ابن إسحق، والذى نقل عنه أيضًا ابن هشام فى السيرة المشهورة باسمه، ونقل الذهبى مما نقله عن ابن إسحق فى هذه الواقعة، مشاركة اليهود فى هذا الحوار الطويل فأورد ص ٥٧٩:

قال ابن إسحق:[2]

«وحدثنى محمد بن أبى محمد مَوْلى زيد بن ثابت، حدثنى سعيد بن جُبير، أوعكرمة، عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يَهُود عند رسول

(١) السيرة النبوية لابن هشام. ط دار الشعب ٢/١٧٤ ـ ١٨٠، ٢٤٢.

(٢) تاريخ الإسلام. شمس الدين الذهبى ص ٥٧٩.

الله ﷻ فتنازعوا، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلاّ يهوديًا، وقالت النصارى: ما كان إلاّ نصرانيًا. فأنزل الله فيهم: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[آل عمران: ٦٥].

فقال أبو رافع القُرظيّ: أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من نجران يقال له الرّبّيس[1]: فهل ذلك تريد يا محمد وتدعو إليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن آمر بعبادة غير الله» فنزلت: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۚ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[آل عمران: ٧٩ ـ ٨١]».

وأضاف الذهبى بإسناده عن ابن إسحق: «إن السيد والعاقب أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرادا أن يلاعناه، فقال أحدهما لصاحبه: لا تلاعنه، فوالله لئن كان نبيًا فلا عنته لا نفلح نحن ولا عَقِبنا. قالوا له: نعطيك ما سألت، فابعث معنا رجلاً أمينًا، ولا تبعث معنا إلّا أمينًا»، فقال ﷺ: «لأبعثن معكم أمينًا حق أمين» فاستشرف لها أصحابه فقال: «قم، يا أبا عبيدة بن الجراح». فلما قام قال: «هذا أمين هذه الأمة».

ومع أن الذهبى أورد هذا فى أحداث سنة ١٠هـ، فإنه فى موضع تال، وفى سياق يؤكد اختلاف هذه الواقعة الآنفة عن الواقعة المتأخرة التى جرت سنة ١٠هـ بمناسبة بعث خالد بن الوليد إلى نجران، أورد الذهبى نقلاً عن ابن إسحق:

---

(١) الربّيس كبير السامرة وهم قوم من اليهود يخالفونهم فى بعض أحكامهم، كإنكارهم نبوة من جاء بعد موسى عليه السلام.

وقال ابن إسحق:

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فى شهر ربيع الآخر، أو جمادى الأولى، سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم ثلاثًا إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم. فخرج خالد حتى قدم عليهم، فبعث الركبان يضربون فى كل وجه ويدعون إلى الإسلام، ويقولون: «أيها الناس، أسلموا تسلموا» فأسلم الناس. فأقام خالد يعلمهم الإسلام، وكتب إلى رسول الله ﷺ بذلك. ثم قدم وفدهم (بنو الحارث بن كعب) مع خالد إلى رسول الله ﷺ، ومن أعيانهم: قيس بن الحصَيْن ذو الغُصَّة، ويزيد بن عبد المَدَان، ويزيد بن المُحَجَّل» قال: «فأمَّر عليهم النبى ﷺ قيسًا»..

وتلا ذلك إيفاد عمرو بن حزم إليهم بالكتاب الذى كتبه النبى بعهده صلى الله عليه وسلم لهم، وأوردت المصادر نصه.

وقد عاد ابن هشام، فروى فى أواخر المجلد الرابع من السيرة [1]، نقلا عن ابن إسحق ـ تفاصيل الواقعة الثانية التى خلط بعض المؤرخين فدمجوا الواقعة الأولى فيها، فذكر ابن هشام وصية الرسول ﷺ إلى معاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن فى عام الوفود ٩/١٠هـ، ثم بعثه خالد بن الوليد فى شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة ١٠ هـ إلى بنى الحارث بن كعب بنجران ليدعوهم إلى الإسلام، فأسلم وأسلم الناس بغير قتال، وأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام والكتاب والسنة. ثم كتب خالد بن الوليد كتابًا إلى الرسول ﷺ، أورده ابن هشام بنصه، يخبره فيه بما كان، فكتب إليه عليه الصلاة والسلام كتابًا يأمره فيه بالمجىء، أورده ابن هشام أيضًا بنصه، فأقبل خالد إلى الرسول ﷺ ومعه وفد بنى الحارث بن كعب، منهم قيس بن الحُصيْن ذى الغُصة، ويزيد بن عبد المدَان، ويزيد بن المحجَّل، وعبدالله بن قُراد الزِّيادى، وشدَّاد بن عبدالله القنّانى، وعمرو بن عبد الله الضّبابى.

---

(١) سيرة ابن هشام.ط دار الشعب. ٢٠٢/٤ وما بعدها.

وأضاف ابن هشام:

«فلما قدموا على رسول الله ﷺ فرآهم، قال: «من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند، قيل: يا رسول الله، هؤلاء رجال بنى الحارث بن كعب، فلما وقفوا على رسول الله ﷺ ـ سلموا عليه وقالوا: نشهد أنك رسول الله، وأنه لا إله إلا الله».. إلى آخر ما دار فى هذا اللقاء وأورده ابن هشام بنصه عن ابن إسحق. وأضاف [1]:

«فرجع وفد بنى الحارث إلى قومهم فى بقية من شوال، أو فى صدر ذى القعدة، فلم يمكثوا بعد أن رجعوا إلى قومهم إلا أربعة أشهر، حتى توفى رسول الله ﷺ، أو رحم وبارك، ورضى وأنعم» وكان الرسول ﷺ قد بعث إليهم بعد أن ولى وفدهم عمرو بن حزم، ليفقههم فى الدين، ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم صدقاتهم، وكتب له كتابًا عهد فيه عهده إليهم، وأمره فيه بأمره، وأورد ابن هشام نص هذا الكتاب الذى يعد وثيقة مبكرة فى حقوق الإنسان.

وواضح تمامًا الاختلاف البين بين الواقعتين، واقعة الحوار الدينى الثلاثى بالمدينة وأسماء الزعماء الذين شاركوا فيه من وفد نجران: العاقب واسمه عبد المسيح، والسيد أو الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة من بنى بكر، وشارك فيه اليهود كما أجمعت المصادر ذاتها التى أخطأت فى تاريخ حصول هذه الواقعة، والواقعة المتأخرة التى سبقها إرسال بعثة خالد بن الوليد، إلى بنى الحارث بن كعب، وأشخاصها.. منهم: قيس بن الحُصين ذى الغُصة، ويزيد بن عبد المدان، ويزيد ابن المحجَّل، وعبد الملك بن قُراد الزّيادى، وشدَّاد بن عبدالله القنانى، وعمرو ابن عبدالله الضّبابى. وهى أسماء مختلفة تمامًا وكلية عمن حضروا واقعة الحوار الدينى الثلاثى الذى شارك فيه اليهود، وانتهى باختيار أبى عبيدة بن الجراح لمرافقة وفد نجران إلى ديارهم ليرشدهم فيما يختلفون فيه.

(١) سيرة ابن هشام. ٤/٢٠٤.

هذا وقد رجعنا أيضًا إلى السيرة النبوية لابن إسحق، والتى حقق أصولها من مصادرها ومخطوطاتها المتفرقة وكتب مقدمتها وضبط ألفاظها وعلق عليها عالمان من علماء الأزهر الشريف، وصدرت بها طبعة فى مجلدين ـ سنة ١٩٩٨م عن قطاع الثقافة بدار أخبار اليوم ـ فوجدنا ص٣٣٤ وما بعدها من المجلد الثانى، أصول الواقعة الثانية التى جرت سنة ١٠ هـ ونقلها عنه ابن هشام، تحت عنوان: «إسلام بنى الحارث بن كعب على يدى خالد بن الوليد لما سار إليهم»، وقدومهم فى وفد مع خالد إلى الرسول ﷺ. ثم بعث عليه الصلاة والسلام عمرو ابن حزم بعهده إليهم، وبالنص ذاته الذى أورده ابن هشام نقلاً عنه. ويؤكد اختلاف هذه الواقعة التى جرت بين جمادى الآخرة وربيع الأول سنة ١٠هـ ـ اختلافها ظرفًا وزمنًا ومضمونًا وموضوعًا وأطرافًا عن واقعة الحوار الدينى الثلاثى الذى شارك فيه اليهود وجرى بالمدينة فى السنة الثانية للهجرة قبل غزوة بدر.

آية استحالة أن تكون سنة ٩ أو ١٠هـ هى تاريخ الواقعة المتقدمة فى السنة الثانية للهجرة، أن هذا المؤتمر الدينى الثلاثى شارك فيه يهود المدينة وتجادلوا مجادلة شديدة أجمعت على إيرادها وبعباراتها وألفاظها المصادر ذاتها التى عزت الواقعة إلى سنة ٩ أو ١٠هـ، ومن المستحيل أن يكون لليهود هذا الوجود الكثيف فى المدينة سنة ٩/١٠هـ، وهذه المشاركة الجدلية الواسعة، بعد نزوحهم أوجلائهم نهائيًا عن المدينة فى السنة الخامسة للهجرة. فلم يشرع بنو قينقاع فى النزوح إلى الشمال ـ بعد ما وقع منهم ـ إلاَّ فى وقت متأخر للعام الثانى للهجرة بعد غزوة بدر، وبقى بالمدينة بنو النضير وبنو قريظة يمارسون حياتهم وأنشطتهم بل مؤامراتهم على المسلمين بالمدينة، ولم ينزح بنو النضير إلاَّ بعد غزوة بنى النضير سنة ٤هـ، أما بنو قريظة فقد بقوا على ما هم عليه بالمدينة، حتى انكشف سترهم سنة ٥هـ فى غزوة الخندق التى تآمروا فيها مع الأحزاب على المسلمين. فلما ارتدت الأحزاب وكفى الله المؤمنين شر هذا القتال وأنقذهم من حصار الكفار للمدينة. رجعوا لمحاسبة بنى قريظة على ما كان منهم من تآمر على

المسلمين، كشفه وأفسده عليهم نعيم بن مسعود الغطفانى فى الرواية المشهورة، ومن المعروف أن غزوة الخندق كانت فى السنة الخامسة للهجرة، وتلتها غزوة بنى قريظة، ومؤدى ذلك أنه فى أعقاب نزوح بنى قريظة سنة ٥هـ للحاق بمن نزحوا إلى الشمال من بنى قينقاع وبنى النضير، خلت المدينة المنورة من اليهود، ولم يعد لهم فيها وجود، ناهيك عن أن يشاركوا ويجادلوا هذه المجادلة الكثيفة الشديدة التى أجمعت عليها المصادر، الأمر الذى يؤكد أن هذا المؤتمر، ومن ثم بعث أبى عبيدة مع وفد نجران، كان فى سنة ٢هـ وقبيل غزوة بدر، ولم يكن فى السنة العاشرة للهجرة التى كانت المدينة خالية فيها خلوًا تامًا من اليهود.

يؤكد ذلك، أن ابن سيد الناس، وهو من المحققين المدققين، المعول عليهم ـ قد أورد بالجزء الأول من كتابه عيون الأثر عن السيرة النبوية[1]، أنه فى طريق عودة وفد نجران من المدينة إلى ديارهم بجنوب الجزيرة العربية، اعترضهم أبوجهل، ومن المعروف أن أبا جهل شارك وقتل فى غزوة بدر فى النصف الثانى من العام الثانى للهجرة، وتحديدًا فى رمضان سنة ٢هـ، مما يقطع بأن المؤتمر الدينى الثلاثى الذى انتدب أبو عبيدة فى نهايته ليذهب مع وفد نجران، كان قبيل بدر، وتحديدًا قبل رمضان من السنة الثانية للهجرة.

ومن المتفق عليه، أن قدوم وفد نجران إلى المدينة سنة ٩ أو ١٠هـ، إنما كان قدوما آخر تاليا بسنوات للمؤتمر الدينى، وما جرى فيه، وكان هذا القدوم لمبايعة الرسول ﷺ فى عام الوفود الذى تقاطرت فيه إلى المدينة، بغرض المبايعة، كل قبائل الجزيرة العربية تقريبًا.

يضاف إلى ذلك أن من عزوا الواقعة ـ خطأ وخلطًا ـ إلى عام ٩ أو ١٠هـ، لم يذكر أى منهم أن أباعبيدة انتدب فيها للذهاب مع وفد نجران ، وإذا كان الطبرى قد أورد إشارة مبتسرة فى تاريخه[2]، أن وفد نجران قدم إلى المدينة

(١) ابن سيد الناس. عيون الأثر فى السيرة النبوية ص ١٦٩.

(٢) تاريخ الطبرى ١٣٩/٣.

عام ١٠هـ، فإن الطبرى قال نقلا عن الواقدى: وفيها قدم وفد العاقب والسيد من نجران. وأن رسول الله ﷺ كتب لهما «كتاب صلح» ولم يزد على ذلك شيئًا. ولم يقل إن أبا عبيدة ذهب معهم إلى نجران، ولذلك فمن المحال أن تكون هذه الواقعة (سنة ١٠هـ) هى التى بعث معهم فيها أبوعبيدة، الأمر الذى يؤكد الوقوع فى خلط ودمج بين الواقعتين، ودليل ذلك الخلط فى الأشخاص أمثال العاقب والسيد، بينما الذين جاءوا فى هذه السنة (العاشرة) أشخاص مختلفون من بنى الحارث بن كعب، كما ذكر الطبرى نقلاً عن الواقدى تسليم كتاب صلح، ولم يحدث ذلك فى واقعة حوار الأديان، ثم إن الثابت المجمع عليه أن أبا عبيدة كان بالمدينة سنة ١٠هـ قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه كان بالمدينة عند تجهيز جيش أسامة بن زيد فى تلك السنة، وأنه كان مطلوبًا للاشتراك فى دفن النبى عليه الصلاة والسلام، مما يؤكد بيقين أنه لم يكن فى نجران!.

وما أورده ابن عبد البر فى «الدرر»[1] واضح فى أن الوفود التى تكرر قدومها للمدينة ـ جاءت للمبايعة والدخول فى دين الله أفواجًا بعد فتح مكة عام ٨هـ، والظهور على المشركين فى حنين، والانصراف من تبوك سنة ٩هـ بلا قتال، وإسلام ثقيف. وذكر ابن عبد البر ـ هذا فضلاً عن أن من وفدوا عام ١٠هـ من نجران، كانوا من بنى الحارث بن كعب، الذين بعث إليهم الرسول بخالد بن الوليد فى جمادى الأولى سنة ١٠هـ، ليدعوهم إلى الإسلام، فأسلموا واستجابوا لما دعاهم إليه خالد، ومكث خالد فيهم فترة يعلمهم كتاب الله وشريعة الإسلام، ثم بعد مكاتبة الرسول ﷺ قدموا إليه مع خالد بن الوليد مبايعين، وبعث معهم عمرو بن حزم يفقههم فى الدين وكتب لهم كتابًا بالصلح، وهذا يؤكد اختلاف الواقعتين! الأولى التى جرت سنة ٢هـ قبل بدر وكانت بمثابة مؤتمر للأديان الثلاثة، والثانية التى جرت فيها المبايعة التى تمت عام الوفود سنة ١٠هـ. وهو هو ما أكده ابن إسحق أقدم كتاب السيرة[2].

(١) الدرر. ابن عبد البر ص ٢٥٣/٢٥٨.

(٢) السيرة النبوية. ابن إسحق. ط أخبار ٣٣٤/٢ – ٣٣٨.

والاهتمام بتحديد تاريخ القدوم الأول لوفد من نجران إلى المدينة، والذى يصدق عليه أنه وقع فيه حوار مستفيض بين الأديان الثلاثة، الإسلام واليهودية والمسيحية، والذى بعث فى نهايته أبوعبيدة مع وفد نجران إلى ديارهم يرشدهم فيما اختلفوا ويختلفون فيه ـ هذا الاهتمام بتاريخ هذه الواقعة، ومتى حصلت، يرجع لسببين، أولهما طرأ لى فى نهاية التسعينيات وأنا أرتب أوراقى ومصادرى ومراجعى لكتابة السيرة النبوية فى رحاب التنزيل، التى نشرت تباعًا على مدار سنتين فى مجلة روز اليوسف، وطبعت فى خمسة مجلدات، تضمن ثانيها هذه الواقعة. ذلك أن ارتباط السيرة النبوية بمناسبات التنزيل، أوجب التدقيق الشديد لإيراد كل واقعة ـ ومنها هذه الواقعة ـ فى تسلسلها الزمنى، وقد فعلت، بيد أن الأسلوب «القصصى» الذى التزمته فى عرض هذه السيرة، ومع التزامه الشديد بالمصادر والنصوص، فإنه لا يسمح بإيراد الأدلة ومناقشتها حتى لا ينقطع السياق القصصى، فلما بدأت فى الكتابة عن أبى عبيدة، بدا لى أن إيراد الدليل على تاريخ هذه الواقعة، مهم أيضًا لدلالة تاريخها المتقدم على الثقة المبكرة التى كان يوليه إياها رسول الله ﷺ.. والكتابة فى سيرته، بالأسلوب الذى اخترته، سمحت بأن أستعرض، وبمزيد من البحث والتوثيق، الأدلة على أن واقعة المؤتمر الدينى الثلاثى بالمدينة، والتى بعث فيها أبو عبيدة مع وفد نجران، كانت فى وقت متقدم، وتحديدًا قبل بدر التى جرت فى رمضان للسنة الثانية من الهجرة إلى المدينة.

ونخلص من ذلك إلى أن المؤتمر الدينى الثلاثى، الذى بعث أبو عبيدة فى نهايته مسبغًا عليه أنه أمين الأمة ومرافقًا لوفد نجران، إنما كان فى العام الثانى للهجرة، وأن هذه الواقعة غير وفود نجران التى ذهبت للمبايعة بالمدينة فى السنة العاشرة للهجرة.

حاصل ذلك ـ أن الثقة النبوية بأبى عبيدة، وحسن الرأى فيه، كانت فى أوائل الهجرة، دالة على مكانة ملحوظة اكتسب بها هذا الصحابى الجليل ثقة النبى عليه السلام مع محبته وتقديره.

وأورد صاحب حلية الأولياء[1]. عن أبى عبيدة، أنه: «الأمين الرشيد، والعامل الزهيد، أمين الأمة، كان للأجانب من المؤمنين وديدًا، وعلى الأقارب من المشركين شديدًا».

ووصفه الذهبى فى الكواكب الدرية فى تراجم الصوفية بأنه: «أمين هذه الأمة، الأمير الرشيد، العالم الزهيد، العابد الفريد، أحد العشرة الكرام البررة. كان لأجانب المؤمنين وديدًا، وعلى أقاربه من المشركين شديدًا، صبر على الاقتصار القليل، إلى أن حان منه النَّقْلةُ والرحيل». وناهيك بمن قال المصطفى ﷺ فى حقه كما ورد فى الأخبار الصحاح: «إن لكل أمة أمينًا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة ابن الجراح».

وفى تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطى، فضلًا عن سنن الترمذى، ما رواه أنس بن مالك من أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال «أرحم أمتى بأمتى أبو بكر، وأشدهم فى أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم على، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت. ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

وجمعت السيرة النبوية (سبل الهدى والرشاد فى خير العباد ـ للإمام محمد ابن يوسف الصالحى الشامى) هذه الروايات بإسنادها، وأخرجت مع اختلاف فى بعض اللفظ، عن الحسن أن الرسول ﷺ قال: «ما من أحد إلّا ولو شئت لأخذت عليه ـ غير أبى عبيدة بن الجراح».. وفى رواية وكيع بن الجراح عن فضالة بن الحسن[2]. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما منكم من أحد إلّا لو شئت فأخذت عليه بعض خلقه، إلّا أبا عبيدة». (وأخرجه الحاكم وابن عبد البر فى الاستيعاب، وابن حجر فى الإصابة فى معرفة الصحابة، وقيل مرسل ورواته ثقات).

---

(١) حلية الأولياء. أبو نعيم الأصفهانى.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى ١٣/١.

وروى أن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ سُئلت: «أى أصحاب رسول الله ﷺ كان أحب إليه؟» قالت: «أبو بكر». قيل لها: «ثم من؟». قالت: «أبوعبيدة بن الجراح».

وروى بإسناد حسن عن عمرو بن العاص، أن النبى صلى الله عليه وسلم سُئل يومًا عن أى الناس أحب إليه من الرجال ـ قال: «أبو بكر، قيل ثم مَنْ؟ قال: أبو عبيدة بن الجراح»[1].

وفى الطبرانى عن طريق عبد الله بن عمر، أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «ثلاثة من قريش، أصبح الناس وجوهًا، وأحسنهم خلقًا، وأشدهم حياءً»، وفى رواية عن عمرو بن العاص زاد: «إن حدثوك صدقوك لم يكذبوك، وإن حدثتهم لم يكذبوك: أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح».. وأخرج الترمذى عن أبى هريرة بإسناد حسن، أن رسول الله ﷺ قال: «نعم الرجل أبو بكر، نعم الرجل عمر، نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح». وروى عن عبد الله بن مسعود قال: «أخلائى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة: أبو بكر وعمر وأبو عبيدة».

وأورد الذهبى[2]، من رواية جابر، أنه كان مع خالد بن الوليد فى المدد الذى لحق بأبى عبيدة بن الجراح وهو يحاصر دمشق، فلما حان وقت الصلاة، قال أبو عبيدة لخالد: «تقدم فصل بالناس، فأنت أحق بالإمامة، لأنك جئت تمدنى»، فقال خالد: «ما كنت لأتقدم رجلاً سمعت رسول الله ﷺ يقول عنه: «لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

وأخرج الحافظ عن أبى ثعلبة قال: «لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: «ادفعنى إلى رجل حسن التعليم، فدفعنى إلى أبى عبيدة.. ثم قال: «دفعتك إلى رجل يحسن تعليمك وأدبك». وروى ابن عساكر، أنه يوم استخلف أبو بكر وبايعه الناس، وُلى الأمين أبو عبيدة بيت المال[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ١٠/١.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/١.

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر ١٦٤/٧.

وأخرج المحب الطبرى فى «الرياض النضرة فى مناقب العشرة،» أن عمر ابن الخطاب قال يومًا لأصحابه: «تمنوا، فقال أحدهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهبًا أنفقه فى سبيل الله عز وجل، وقال آخر: أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤًا وزبرجدًا وجوهرًا أنفقه فى سبيل الله عز وجل وأتصدق به، فعاد عمر يقول لهم: تمنوا، قالوا: ما ندرى ما نقول يا أمير المؤمنين، قال عمر: لكنى أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة رجالاً مثل أبى عبيدة». أخرجه أيضًا ابن كثير فى «صفوة السيرة»، وأخرجه الفضائلى وزاد: «فقال رجلاً ما آلوت الإسلام، قال: ذلك الذى أردت».

تتجلى شمائل أبى عبيدة وسجاياه، فيما كان يرويه من أحاديث رسول الله ﷺ.. عن عياض بن غُطَيْف، قال: دخلت على أبى عبيدة بن الجراح فى مرضه وامرأته «نُحَيْفة» جالسة عند رأسه، وهو مقبل بوجهه على الجدار، فقلت: كيف بات أبو عبيدة؟ قالت: بات بأجر. فقال أبو عبيدة: إنى والله مابتُّ بأجر!.. فكأن القوم ساءهم قوله، فقال: ألَا تسألوننى عما قلت؟ قالوا: إنَّا لم يعجبنا ما قلت، فكيف نسألك؟! قال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أنفق نفقةً فاضِلةً فى سبيل الله، فبسبعمائة، ومن أنفق على عياله، أو عاد مريضًا، أو ماز أذًى، فالحسنة بعشر أمثالها، والصوم جُنَّة ما لم يخرقها، ومن ابتلاه الله ببلاء فى جسده، فهو له حِطَّة»

وجاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فسأله أمرًا من أمور الدين، ثم استطرد الرجل فذكر أنه سأل أبا عبيدة فى ذلك فروى له حديثًا عن رسول الله ﷺ، فصاح به عمر: «لقد حدثك الصادق الأمين، فلا تبغ بعد حديثه هدًى»..

الأمانة
السجية المانحة

تعددت المرويات فى الصحاح وكتب السيرة عن صفة الأمانة فى أبى عبيدة، وعن أحاديث النبى ﷺ التى أسبغ عليه فيها أنه «أمين الأمة» وأقوال الصحابة الذين أجمعوا على وصفه بالأمانة، وتلقيبه بأنه «أمين الأمة»، وأورد ابن عساكر فى تاريخ دمشق، على ما تقدم، أن أبا بكر الصديق ولاه بيت المال ثقة بأمانته، وتكررت الإشارة والإشادة بهذه الأمانة فى كتب الحديث والسير وأعلام الصحابة، حتى لا تجد مصدرًا أو مرجعًا إلا ويشير إلى «أمانة» هذا الصحابى، ويورد اللقب الذى طار فى الآفاق أنه «أمين الأمة».

والأمانة تأتى فى مقدمة الشمائل الأخلاقية المانحة، فقوامها الإخلاص، والصدق مع النفس، ومع الغير.. فالأمانة فيما يروى القرآن الحكيم ـ هى التى عُرضت على الجبال فأبينها وأشفقن منها وحملها الإنسان، فهو أجدر المخلوقات بحمل الأمانة ـ وبها أمر الإنسان فجاء بالكتاب المجيد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].. وجمع القرآن الحكيم بين الأمانة ورعاية العهد فجعلها صفة للمؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].. وأمر المؤمنين بأداء الأمانة وحذرهم من الخيانة فيها، حتى جمع بين خيانة الأمانة وبين خيانة الله ورسوله، فقال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].. وأمر بالوفاء بالعهد، وهو فرع على الصدق فى حمل الأمانة وأدائها، فقال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].. وقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١]..

وقال فى وصف المؤمنين إنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ [الرعد: ٢٠].. ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٧٧]. ومن احترام الإسلام للأمانة ووجوب أدائها فى الولاية وفى الحكم وفى العهود والعقود، جعل القرآن الحكيم هذا الوفاء مقدمًا فى الإسلام حتى على حق الدين، فجاء به: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٢]، فقدم القرآن بصريح لفظه، احترام ورعاية العهد والوعد والميثاق على نصرة من يستنصر المسلمين فى الدين.. وفى الحديث النبوى: «إن حسن العهد من الإيمان».. ودل القرآن الحكيم على أن الوفاء بالوعد هو خلق الأنبياء والرسل والصالحين: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٤].. وفى وصف وثواب المؤمنين بمراعاتهم الأمانة والعهد، جاء بالكتاب المجيد: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[المؤمنون ٨ - ١١].

ومن يتابع مناقب أبى عبيدة، وهى عديدة وثرية، يجدها نابعة من سجية الأمانة متفرعة عنها، تصدر عنها وتعود إليها، فكان ناصحًا أمينًا، زاهدًا عفيفًا، مخلصًا صادقًا، متواضعًا متسامحًا، عادلاً منصفًا، يؤثر على نفسه، وينكر ذاته إنكارًا لم يفارقه قط فى أى موقف منذ أسلم وهاجر بإسلامه إلى الله، لا يبغى من أحد جزاءً ولا شكورًا، ولا يغنيه أن يمجده أو يطربه أحد، يتوارى تعففًا وحياءً أمام عبارات المديح والثناء.

زهده وحياؤه وتواضعه

عن زهده تعددت القصص والروايات، تجدها حاضرة على الدوام فى كل صفحات سيرته الطويلة.. لم تغره الدنيا قط، ولا المكانة، ولا الإمارة، ولا الرياسة، فظل دائمًا المتواضع العفيف القانع الزاهد.. الصامد فى الجهاد، الصابر فى البلاء.. روى ابن المبارك فى «الزهد» قال: «أنبأنا عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، قال: حدثنى عبد الرحمن بن غَنْم، عن حديث الحارث بن عميرة ـ قال: أخذ معاذ بن جبل بيده، فأرسله إلى أبى عبيدة، فسأله كيف هو، وكانت قد أصابته طعنة فى يده، فلما رآها الحارث وقد خرجت فى كفه كثر عليه شأنها وفرق لها حين رآها، ولكن أبا عبيدة خفف روعه وقال له مقسمًا بالله، إنه لا يحب أن يكون له مكانها ـ حُمْر النَّعَم».

كان مثاليًا فى تعففه وزهده، حتى أبكى الفاروق عمر بن الخطاب، فكان يقول: «كلنا غَيَّرتنا الدنيا إلَّا أبا عبيدة».. رفض الفرار من الطاعون الذى حل بالشام، وأبى تلبية دعوة عمر أن يلحق به بالمدينة، وآثر أن يبقى وسط جنوده بالشام، فلما بلغ كتابه إلى عمر، بكى، فقال له المحيطون به: «أمات أبو عبيدة؟! ـ قال: «وكأن قد» !!. وقد كان، وأصيب أمير أمراء الشام بالطاعون، وتوفى به، فرثاه معاذ بن جبل إلى المسلمين قائلاً: «قد فجعتم برجل ما أزعم أنى رأيت عبدًا أبرّ صدرًا، ولا أبعد من الغائلة، ولا أشد حبًا للعامة ولا أنصح منه».

وعلى مكانته فى الإسلام، وبين الصحابة والمسلمين، كان شديد الحياء، جم التواضع، يقول للناس وهو أمير الأمراء فى الشام: «يا أيها الناس، إنى امرؤ من قريش، وما منكم من أحمر ولا أسود يفضلنى بتقوى، إلَّا وددت أن أكون فى إهابه».. لا تكاد تطالع هذه العبارة للقائد المظفر الذى دانت له الانتصارات، إلا ويحضرك لُمَعٌ من النبع الفياض الذى تلقى منه هؤلاء الصحابة ـ هذه السجايا والشمائل.. كان الهادى البشير ﷺ، فى تواضعه الجم، يرتق ثوبه

بيده، ويخصف بها نعله، ويقول لأعرابى بسيط أخذته الرعدة من هيبته: «هَوّن عليك، فأنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد فى مكة»!

حين وجهه أمير المؤمنين إلى الشام، تلقاه الجنود وهو على «قلوص»[1]، مكتنفها بعباءة خطامها من شعر، لابسًا سلاحه، متنكبًا قوسه.. ولم يتعرف عليه رسول الروم وهو بين جنوده، إلّا بعد أن سألهم عنه وأرشدوه إليه.

روى المحب الطبرى فى: «الرياض النضرة فى مناقب العشرة»[2]، أن الروم قد بعثوا إليه ـ وهو أمير الأمراء بالشام، بمبعوث ليتحدث إليه، فلما وصل إلى المكان، نظر فيمن حوله، فلم يتعرف عليه، فسأل الناس: أين أميركم؟ فأشاروا إلى أبى عبيدة: ها هو ذا.

نظر مبعوث الروم، فوجد أبا عبيدة جالسًا على الأرض، وبجواره فرسه، وبيده أسهم يقلبها. فسأله الرسول مندهشا: «أنت أمير هؤلاء؟! قال أبو عبيدة: نعم. قال الرومى: «ما يجلسك على الأرض؟! ثم أضاف مستأنفًا: أرأيت إن كنت جالسًا على وسادة أو تحتك بساط، أكان ذلك واضعك عند الله؟ أو هل يبعدك عن الإحسان» ؟!

أجابه أبو عبيدة: «إن الله لا يستحى من الحق، لأصدقنك، ما أصبحت أملك إلّا سيفى وفرسى وسلاحى، وقد احتجت أمس إلى نفقة فاقترضت من أخى هذا.. وأشار إلى معاذ بن جبل، ثم استأنف: «لو كان عندى بساط أو وسادة، ما كنت أجلس عليه وأجلس أخى هذا على الأرض، ولعله خير منى منزلة عند الله عز وجل.. نحن عباد الله، نمشى على الأرض، ونجلس عليها، ونأكل عليها، ونضطجع عليها.. وليس ذلك بناقصنا عند الله شيئًا، بل تعظم به أجورنا، وترتفع به درجاتنا، فهلم حاجتك التى جئت لها..».

زاره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فى زيارته الأولى للشام، حين عقد صلح بيت المقدس، فلم يجد فى داره سوى سيفه وفرسه ورحله، فقال له عمر:

(١) جمعها قلائص وهى الإبل الفتية.

(٢) الرياض النضرة فى مناقب العشرة ـ المحب الطبرى ٢/٣٥٥.

«ألا اتخذت ما اتخذ أصحابك؟. فقال له: «يا أمير المؤمنين، إن هذا يبلغنى المقيل».. وقيل فى رواية أن عمر بدأ فسأله: «أين متاعك؟! ما أرى إلاّ لبدًا وصحفة وشنًا، وأنت أمير».. ثم استأنف عمر سائلاً إياه: أعندك طعام؟ فنهض أبو عبيدة إلى جونة فأخذ منها كسيرات، فبكى عمر.. فقال له أبو عبيدة: «لا تعصر عينيك علىّ يا أمير المؤمنين، يكفينا ما يبلغنا المقيل».

مما روى عنه فى أثناء إمارته لأجناد الشام، أنه كان يسير فى العسكر ويقول لهم: «ألا رب مبيض لثيابه، مدنس لدينه.. ألا رب مكرم لنفسه، وهو لها مهين.. ألا بادروا (تداركوا) السيئات القديمات بالحسنات الحديثات.. فلو أن أحدكم أخطأ ما بينه وبين السماء والأرض، ثم عمل حسنة لعلت فوق سيئاته حتى تقهرهن».

وروى فى كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل، بسنده عن قتادة، أن أبا عبيدة كان لا يفتأ يقول مواسيًا الناس فى عام الرمادة: «وددت أنى كبش فذبحنى أهلى فأكلوا لحمى وحسوا مرقى». وروى أنه كان يقول: «لوددت أنى كنت رمادًا فتسفينى الريح، فى يوم عاصف حثيث».

وعلى شدة زهده، دخل عليه رجل فألفاه يبكى، فسأله مدهوشًا: ما يبكيك يا أبا عبيدة؟ فقال: «يبكينى أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذكر يومًا ما يفتح الله على المسلمين، حتى ذكر الشام فقال لى: إن ينسأ الله من أجلك يا أبا عبيدة، فحسبك من الخدم ثلاثة: خادم يخدمك، وخادم يسافر معك، وخادم يخدم أهلك ويرد عليهم.. وحسبك من الدواب ثلاث: دابة لرحلك، ودابة لثقلك، ودابة لغلامك.. ثم استأنف أبو عبيدة قائلا: كيف ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أوصانا: «إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى ـ من لقينى على الحال التى فارقنى عليها».

وقد اتفقت جميع الروايات على زهده وتعففه وتواضعه، وهى سجايا وشمائل معبرة عن متانة وقوة النفس، لأن الزهد إعراض عن المتاع والتنعم وعن الشهوات

والأهواء، وهذا الإعراض حصاد إرادة قوية متماسكة لا تضعف أمام مغريات المال أو الجاه أو الشهوة أو النفوذ.. وتستمد من داخلها ما تتحرر به النفس وتستغنى عن كل النوازع والمغريات. فمن زهد أبى عبيدة كان غناه، لأنه بزهده استغنى، ومن استغنى تحرر، حتى قيل: «اتق عفة المستغنى».. قنع بما يمسك الرمق ويبلغ المقيل، فصار بقناعته وزهده واستغنائه أغنى الأغنياء، وأعز الأقوياء..

هذا الزهد الذى راض أبو عبيدة نفسه عليه، واستغنى به عما يغرى الناس من أطايب الطعام والشراب واللباس والمتاع، كان وراء صورة من صور الجلد النادرة فى غزوة «الخَبَط»[1]. حين أرسله النبى صلى الله عليه وسلم أميرًا على ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً إلى منطقة سيف البحر، وليس معهم من زاد سوى جراب تمر.. فمضى أبو عبيدة بمن معه لا يعطيهم كل يوم، كما روى صاحبه فيها جابر ابن عبد الله، سوى قُبضة قُبضة.. أى حفنة من التمر بحجم كف اليد.. يمصون التمرة كما يمص الصبية.. حتى إذا ما أوشك الزاد الضئيل على النفاد، جعل يعطيهم تمرةً تمرة، ولا يميز نفسه عنهم، حتى إذا فرغ التمر جميعه، راحوا يتصيدون «الخَبَط» (ورق الشجر) بالقسىّ، ويدقونه ويسفونه ويشربون عليه الماء لمقاومة الجوع والصبر عليه، حتى سميت الغزوة بغزوة «الخبط». فى هذه الملحمة للصبر والجلد، أخذ أبو عبيدة نفسه بما أخذ به من معه، على مدى خمسة عشر يومًا وليلة، قبل أن يعود بهم مجبورى الخاطر إلى المدينة... فقال النبى ﷺ فيه: «نعم الرجل أبو عبيدة».

وروى ابن سعد صاحب الطبقات الكبرى، عن مالك بن أنس، أن عمر بن الخطاب أرسل إلى أبى عبيدة بأربعة آلاف درهم وأربعمائة دينار، وقال للرسول: انظر ما يصنع، قال فقسمها أبو عبيدة ولم يبق شيئًا لأهله، فلما بلغ عمر قال: «الحمد لله الذى جعل فى الإسلام من يصنع هذا»... وروى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ، قال: «نعم الرجل أبو عبيدة».

---

(١) نسبةً إلى ورق نوع من الشجر.

عن زهده وإيثاره الناس على نفسه فى عام الرمادة، روى عمران بن حصين أنه كان يقول: «لوددت أنى كنت رمادًا تسفينى الريح فى يوم عاصف حثيث».. وحدث معمر عن قتادة قال، قال أبوعبيدة بن الجراح: «لوددت أنى كبش يذبحنى أهلى فيأكلون لحمى، ويحسون مرقى»... رفقًا بأهله وبالناس فى عام الرمادة [1].

وأورد محمد يوسف الكندهلوى، فى حياة الصحابة، عن زهد أبى عبيدة رضى الله عنه:

أخرج أبو نعيم فى الحلية[2] عن عروة قال دخل عمر بن الخطاب على أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنهما، فإذا هو خالٍ إلاّ من سيفه وترسه ورحله.. فقال له عمر: ألا اتخذت ما اتخذ أصحابك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، هذا يبلغنى المقيل. وقال معمر فى حديثه: لما قدم عمر الشام تلقاه الناس وعظماء أهل الأرض فى الجابية فقال عمر: أين أخى؟ قالوا: من؟ قال: أبو عبيدة، قالوا: الآن يأتيك، فلما أتاه نزل فاعتنقه ثم دخل عليه بيته فلم ير فى بيته إلا سيفه وترسه ورحله ـ ثم ذكر نحوه. وأخرجه الإمام أحمد أيضًا نحو حديث معمر، كما فى صفة الصفوة ج ١ ص ١٤٣ وابن المبارك فى الزهد من طريق معمر نحوه، كما فى الإصابة فى تمييز الصحابة[3].

وروى ابن عساكر فى تاريخه[4]، أنه قيل لعمر بن الخطاب حين سأل عن أبى عبيدة بعدما أنقص من عطاياه، يا أمير المؤمنين، قد شحب لونه، وتغيرت ثيابه، وساءت حاله، فقال عمر: يرحم الله أبا عبيدة ما أعفه وأصبره، هل يؤخذن على رجل أسبغنا عليه فأسبغ على عياله، وأمسكنا عنه فصبر واحتسب، ورد عمر عليه ما كان قد حبسه عنه، وأجراه عليه.

---

(١) أسد الغابة ٣/١٣٠.

(٢) حلية الأولياء. أبو نعيم الأصفهانى ١/١٠١.

(٣) الإصابة فى معرفة الصحابة. ابن حجر العسقلانى ٢/٢٥٣.

(٤) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/١٦٥.

الناصح الأمين

يبدو لمن يتابع مناقب أبى عبيدة، أنها تصدر عن طبع أصيل صقله الإسلام ونماه وأتاحت له الحياة الإسلامية العريضة الإفصاح عنها إفصاحًا مؤثرًا فى الحياة الحافلة التى خاضها وشارك فى أحداثها منذ أسلم، وأن هذه المناقب المتعددة يمكن بشكل ما أن تكون فرعًا على الأمانة التى طار صيته بها، منذ لفت النبى ﷺ الأنظار إليها، حين أسبغ عليه أنه أمين الأمة.

كان أبو عبيدة، بهذه الأمانة، مخلصًا شديد الإخلاص.. صادقًا مع نفسه ومع الآخرين.. تروى الروايات المتفق عليها، أنه يوم استقبل عمر بن الخطاب بالشام، فإنه لم يحجب نصحه عن عمر وهو أمير المؤمنين، فروى الآبى فى نثر الدر[1]، أن الفاروق ما كاد ينزل عن ناقته ويخلع خفيه ويحملهما على عاتقه، ويخوض المخاضة آخذًا بزمام ناقته، حتى بادره أبو عبيدة بقوله:

«يا أمير المؤمنين، ما يسرنى أن أهل البلد استشرفوك (أى رأوك).. فقال له عمر رضى الله عنهما: «لو غيرُك يقول هذا لجعلته نكالاً.. إنا كنّا أذلّ قوم، فأعزّنا الله بالإسلام، فإن طلبنا العز بغير ما أعزّنا الله به.. أذلنا»[2].

وأورد ابن عساكر فى تاريخه[3]ـ أن الحافظ والبيهقى رويا من طريق عبد الرازق عن خوات بن جبير، وكان شاعرًا حسن الصوت، قال: خرجنا حجاجًا مع عمر بن الخطاب، فسرنا فى ركب فيهم أبو عبيدة وعبد الرحمن بن عوف، فقال القوم: غننا يا خوات فغناهم فقالوا: غننا من شعر ضرار فقال عمر: دعوا أبا عبد الله يغنينا من بنيات فؤاده.. يعنى من شعره، قال خوات: فما زلت أغنيهم حتى إذا كان السحر، فقال عمر: ارفع لسانك يا خوات فقد أسحرنا،

---

(١) نثر الدر ـ الآبى ٤٣/٢، ٤٤.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٦٢/١.

(٣) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ١٦٦/٧.

فقال أبو عبيدة: هلم إلى رجل أرجو ألا يكون شرًّا من عمر، قال: «فتنحيت أنا وأبو عبيدة، فما زلنا كذلك حتى صلينا الفجر».

وأورد ابن عساكر بسنده، في تاريخه[1]، أنه بلغ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، أن أبا عبيدة حُصِرَ بالشام، وتألب عليه العدو، فكتب إليه عمر يقول بعد السلام:

«أما بعد، فإنه ما نزل بعبد مؤمن شدة إلّا جعل الله له بعدها فرجًا، وإنه لا يغلب عسر يسرين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فكتب إليه أبو عبيدة بعد السلام:

«أما بعد، فإن الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ١٠].

فخرج عمر بكتابه، فقعد على المنبر فقرأه على أهل المدينة، ثم قال عمر: «يا أهل المدينة، إنما يُعَرّضُ بكم أبو عبيدة أو بي.. ارغبوا في الجهاد».

لم يحجزه عن النصيحة، أن تكون واجبة للفاروق عمر بن الخطاب وهو منهو، فكتب إليه هو ومعاذ بن جبل، كتابًا من الشام، أرسلاه إليه بالمدينة، جاء به بعد السلام:

«أما بعد، فإنا عهدناك وأمر نفسك لك مهم، فأصبحت قد وليت أمر هذه الأمانة أحمرها وأسودها، يجلس بين يديك الشريف والوضيع، والعدو والصديق، ولكلٍّ حصته من العدل، فانظر كيف أنت عند ذلك يا عمر؟! فإنا نحذرك يومًا تعنو فيه الوجوه، وتجف فيه القلوب، وتنقطع فيه الحجج لحجة ملك قهرهم

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ١١٦٤/٧، ١٦٥.

بجبروته، فالخلق وآخرون له يرجون رحمته ويخافون عقابه، وإنا كنا نحدث أن أمر هذه الأمة سيرجع فى آخر زمانها إلى أن يكون إخوان العلانية أعداء السريرة، وإنا نعوذ بالله أن ينزل كتابنا إليك سوى المنزل الذى نزل من قلوبنا، فإنما كتبنا به نصيحة لك والسلام عليك»[1].

لم يغضب عمر بن الخطاب، ولا ضاق صدره أو تأفف من هذا النصح، ولا استعلى عليه أو أشاح عنه أو أهمل الرد عليه، فكتب إلى أبى عبيدة ومعاذ يقول لهما بعد السلام:

«أما بعد: أتانى كتابكما تذكران أنكما عهدتمانى وأمر نفسى لى مهم فأصبحت قد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يدى الشريف والوضيع، والعدو والصديق، ولكل حصته من العدل. كتبتما: فانظر كيف أنت عند ذلك يا عمر؟ وأنه لا حول ولا قوة لعمر عند ذلك إلاّ بالله عز وجل، وكتبتما تحذراننى ما حذرت منه الأمم قبلنا، وقديمًا كان اختلاف الليل والنهار بآجال الناس يقربان كل بعيد، ويبليان كل جديد، ويأتيان بكل موعود، حتى يصير أناس إلى منازلهم من الجنة والنار! كتبتما تحذراننى أن أمر هذه الأمة يرجع فى آخر زمنها إلى أن يكون إخوان العلانية أعداء السريرة، ولستم بأولئك وليس هذا بزمان ذاك، وذلك زمان تظهر فيه الرغبة والرهبة تكون رغبة الناس بعضهم إلى بعض لصلاح دنياهم! كتبتما تعوذاننى بالله أن أنزل كتابكما سوى المنزل الذى نزل فى قلوبكما وأنكما كتبتما به نصيحة لى، وقد صدقتما، فلا تدعا الكتابة إلىّ فإنه لاغنى لى عنكما».

حرص أبو عبيدة دائمًا على النصح والهداية، وتجلى ذلك فى مأثوراته التى شملت نصائحه ومواعظه وما كان يحث به الأجناد وعامة المسلمين.. كان يحض المسلمين على غسل الذنوب والخطايا بالتوبة والإقبال على الحسنات، ويمشى وسط العسكر يقول لهم: «ألا رب مبيض لثيابه مدنس لدينه، ألا رب مكرم لنفسه

(١) حلية الأولياء ـ أبو نعيم الأصفهانى ١/٢٣٨.

وهو لها مهين.. ادرءوا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات، فلو أن أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء ثم عمل حسنة، لعلت فوق سيئاته حتى تقهرهن».

تجد مدد هذه الهداية فى القرآن الحكيم وفى الأحاديث النبوية، وفى الأحاديث القدسية، ومنها ما قيل فيه إن العبد لو أتى ربه بقراب الأرض خطايا لقابل الله توبته بقراب الأرض مغفرة.. ترى فى نصيحة أبى عبيدة للمسلمين، حرصه على أن يجنبهم أصلاً الوقوع فى الخطايا، ويلفتهم إلى أن العبرة بالمخبر. لا بالمظهر الذى لا يلتفت إلى جوهر ما يحض عليه الدين.. ما فائدة الثياب مهما نصعت وتجملت وازدهت، إذا كان مرتديها يدنس دينه ولا يلتزم حدوده ولا يبالى بأوامر الله ونواهيه فيلوث سيرته ـ وإن زها ثوبه ـ بالمعاصى والآثام؟! ويفطنهم إلى أن إكرام النفس الحقيقى لا يتأتى بالتعالى والتنعم والتكبر والاستعلاء، ففاعل ذلك يهين فى الواقع نفسه، لأن النفس تزدان بمناقبها وسلوكها واتباعها الصراط المستقيم، وتهان حين تفارق هذه الشمائل التى يتوجب على المؤمنين التحلى بها.. حتى إذا ما أوفى أبو عبيدة واجبه فى هذا النصح وهذه الهداية، يحرص على أن يفتح أبواب الأمل والرجاء، ويحث الناس على الحسنات، لأنهن يذهبن السيئات.

كان ينصح المسلمين بنقاء القلب والسريرة، والتزام الجادة، ويحذرهم مما تنقلب به النفوس، ليحتاطوا من هذه التقلبات، ويحرصوا على الرشد والهداية، فيقول لهم رضى الله عنه ناصحًا: «مثل قلب المؤمن مثل العصفور.. يتقلب كل يوم كذا وكذا مرة».[1]

حتى وهو يجود بروحه، حين أصابه الطاعون ـ بعد أن أبى ترك جنوده بالشام، لم يفارق حرصه على إزجاء النصح النابع من يقظته لواجب الأمانة التى يحملها تجاه الحق، وتجاه المسلمين.. فيدعو رضى الله عنه، من حضره من المسلمين، فينصحهم قائلاً لهم فى رفق ومودة ولين:

---

(١) حلية الأولياء ـ أبونعيم الأصفهانى ١ / ١٠٢.

«إنى موصيكم بوصية إن قبلتموها لم تزالوا بخير: أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا شهر رمضان، وتصدقوا وحجوا واعتمروا، وتواصوا وانصحوا لأمرائكم ولا تغشوهم ولا تهلككم الدنيا، فإن امرءًا لو عَمَّر ألف حَوْل ما كان له بد من أن يصير إلى مصرعى هذا الذى ترون.. إن الله كتب الموت على بنى آدم فهم ميتون، وأكيسهم أطوعهم لربه، وأعملهم ليوم معاده، والسلام عليكم ورحمة الله! يا معاذ بن جبل، صل بالناس».. ومات.

وأنت حين تراجع ما حفلت به هذه الوصية الجامعة المانعة من كريم الشمائل التى حض عليها هذا الصحابى الجليل، لا يخطئك تفطنه إلى واجب النصح بالذات، للوالى ولعامة المسلمين، فيقول لهم: «تواصوا وانصحوا لأمرائكم ولا تغشوهم».. وهو ما حرص عليه ناصحًا حتى للفاروق عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، وقابلاً للنصيحة لنفسه من عامة المسلمين.[1]،[2].

تقول الرواية إن صديقه وأخاه فى الله، معاذ بن جبل، قام يومها لينصح الناس تواصلاً مع ما أبداه لهم أبو عبيدة، فيقول لهم معاذ:

«يا أيها الناس توبوا إلى الله من ذنوبكم توبةً نصوحًا، فإن عبدًا لا يلقى الله تائبًا من ذنبه، إلاّ كان حقًا على الله أن يغفر له، إلاّ من كان عليه دين فإن العبد مرتهن بدينه. ومن أصبح منكم مهاجرًا أخاه فليلقه فليصافحه، ولا ينبغى لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاث فهو الذنب العظيم».

* * *

(١) حلية الأولياء ـ ابو نعيم الأصفهانى ١/١٠٢.

(٢) حياة الصحابة للكندهلوى ٣ / ٥٠٧.

لينه ورفقه بأهله وبالناس

يخلط كثير من الناس، بين الجدية وبين الصرامة أو الشدة أو العنف أوالغلظة، ويعتبر بعضهم أن الجدية أو القوة لا تكون إلاّ فى هذا الأسلوب الصارم أو الجاف أو الغليظ، وقد يتطرف بعضهم فيحسب أن اللين ضعف وتفريط، وأن القوة واللين نقيضان لا يجتمعان. وهذا خلط ضرير بين داخل الإنسان وخارجه، فالقوة والثقة وما شاكلهما، نابع من داخل الإنسان، أما الخارج فهو ظاهر السلوك الذى يجرى به التعبير عن المرام أو المقصود أو المراد..فالرفق واللين، من أخلاق القوة الحميدة، فالضعيف هو الذى يحتاج إلى مداراة ضعفه، والقوى مدده فى قوته، لا يجزع من بذل الرفق واللين ومعاملة الناس بالحسنى.. والقوى الواثق، لا يهتم بالمظهر مادام قراره وتصرفه وسلوكه نابعين من هذه القوة وهذه الثقة، وقد يدارى الضعيف المهتز، ضعفه واهتزازه باصطناع الصرامة والشدة والجفاء والغلظة، وهى مداراة لا يعنى بها ولا يلتفت إليها القوى الواثق، لأن ما بداخله يغنيه. ومن يتابع الأحاديث العديدة فى الألفة يتبين له أنه لا تناقض بين القوة التى يحبها الله لعباده فى الحق حتى قيل: المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.. فلا تناقض بين القوة والألفة ومؤالفة الناس، واللين لهم، وخاصة للبسطاء والضعفاء منهم، حتى قيل فى الحديث: «المؤمن آلف ومألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف»، وقيل أيضًا: «ما دَخَل الرفق فى شىء إلاّ زانه، وماخرج من شىءٍ إلاّ شانه» ـ أى عابه.

وصورة أبى عبيدة بن الجراح، ناطقة بهذه المعانى، ترى جانبيها واضحين كفلق الصبح فى جهاده وبطولته اللذين جرت بهما الأمثال والروايات، وحضر بها المشاهد كلها، وأبلى فيها بلاء عظيمًا يجل عن الوصف، مر بك بعضه، وسيأتى غيره حين نعرض لجهاده فى الإسلام. أما لينه ورفقه ومودته وعطفه

وبره بالناس، فكان آية فى دماثته ورحمته وتواضعه ومودته، وهى شمائل نابعة من قوته التى كان يميز بها بين من يستحق هذا اللين والألفة من المؤمنين، وبين من ينبغى معاملتهم بالشدةِ من الكافرين.

لقد مر بنا ما كان ينصح به أبو بكر الصديق من يأتونه سائلين إياه أن ينصح ويختار لهم، فكان يقول لهم فيما تعددت به الروايات: «عليكم بالهين اللين، الذى إذا ظُلم لم يظلم، وإذا أسىء إليه غفر، وإذا قُطع وصل.. رحيم بالمؤمنين، شديد على الكافرين. عليكم بأبى عبيدة بن الجراح».

عباراته لجنده وللمسلمين، فى عام الرمادة، ناطقة بسجاياه هذه وشمائله، فلم يميز نفسه عنهم، وكان رفيقًا بهم حانيًا عليهم، لا ينى عن تشجيعهم. فيمر بينهم يقول لهم مواسيًا مشجعًا: «لوددت أنى كبش يذبحنى أهلى فيأكلون لحمى ويحسون مرقى».. ويقول: «لوددت أنى كنت رمادًا تسفينى الريح فى يوم عاصف حثيث».

كان متواضعا لجنده وللمسلمين، ويأبى تعظيمهم له، أو انبهارهم به، أوتفخيمهم إياه، فيقول لهم مترفقًا: «يا أيها الناس، إنى امرؤ من قريش، والله ما منكم أحمر ولا أسود، يفضلنى بتقوى، إلَّا وددت أن أكون فى مسلاخه (أو إهابه)».

روى الآبى فى نثر الدر[1] ـ أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ذهب ومعه أبو عبيدة وعبد الرحمن بن عوف لتفقد معاوية بن أبى سفيان عامله على ماكان يوليه إياه، فتلقاهم معاوية فى كوكبة خشناء[2]، فثنى وركه فنزل، وسلم على أمير المؤمنين بالخلافة. فلم يرد عليه عمر، فقال له أبو عبيدة (الذى عرف بلينه ورفقه): «يا أمير المؤمنين أتعبت الفتى فلو كلمته». فقال عمر لمعاوية. إنك لصاحب الجيش الذى أرى؟ قال معاوية: أجل. فقال له عمر: لم؟!.

(١) نثر الدر ـ الآبى ١٣/٣.

(٢) (كثيرة السلاح).

قال معاوية: لأننا ببلاد يكثر بها جواسيس العدو، فإذا نحن لم نتخذ العدة والعدد للعدو استخف بنا، وهجم على عوراتنا. وأنا ـ بعد ـ عاملك، فإن وقفتنى وقفت، وإن استزدتنى زدت، وإن استنقصتنى نقصت.

قال له عمر: «والله لئن كنت كاذبًا إنه لرأى أريب. (وإن كنت صادقًا إنه لتدبير أديب).

ما سألتك قط عن شيء إلَّا تركتنى فيه أضيق من رواجب الضرس[1]. لا آمرك ولا أنهاك».

لم يحجب أبو عبيدة، على شدة ما كان يأخذ به نفسه، وتقدم بعضٌ منه ـ لم يحجب رفقه عن معاوية رغم اختلافه عنه، ولم يتوان من أن يطلب من أمير المؤمنين أن يترفق به ولا يتعبه أكثر مما أتعبه، ولم ير بأسًا فى أن يعطيه الخليفة الفرصة للإبانة عن موقفه، ورأى بلينه ورفقه أن هذا أدعى لحفظ مكانة معاوية بين رجاله.

وترى جانبًا لافتًا من هذا الرفق فى المعاملة، مع قوة النفس والثقة بها، فى موقفه الذى مر بعضه، وربما عدنا إلى بيان المزيد فيه، حين أبى عمرو ابن العاص فى ذات السلاسل، إلاّ أن تكون القيادة له، دون أبى عبيدة ما دام قد أتاه مدد. ومع سابقة أبى عبيدة، ومكانته وفضله، وغضب كبار الصحابة وفيهم أبو بكر وعمر له، إلاّ أن أبا عبيدة أبى ـ برفقه وتواضعه ـ إلاّ أن يحفظ وحدة الكلمة، فيقول وهو يتذكر وصية النبى صلى الله عليه وسلم له: «تطاوعا ولا تختلفا». يقول مضيفا لعمرو: «وإنك والله إن عصيتنى لأطيعنك».

ترى رفقه ولينه لعمرو بن العاص، برغم أنه سعى لأن يكون أميرًا عليه فى الشام، وطلب إلى عمر بن الخطاب أن يتدخل لدى أبى بكر لتزكيته ليتولى هو القيادة ـ على أبى عبيدة ـ بالشام، ومع ذلك عامله أبو عبيدة باللين، وكسبه بالرفق ودماثة الطبع وكرم التواضع.

---

(١) أى تركتنى فى أمر يصعب علىّ الخروج منه.

فى رواية طويلة، أورد المحب الطبرى[1] ـ من رواية أبى حذيفة فى «فتوح الشام» ـ أن أبا بكر قد بعث عمرو بن العاص فى نفر وقال له: «يا عمرو، هؤلاء أشراف قومك يخرجون مجاهدين فى سبيل الله، بائعين أنفسهم لله، فاخرج فعسكر حتى أندب الناس معك»، فقال عمرو: يا خليفة رسول الله ألست أنا الوالى على الناس؟ قال: بلى، أنت الوالى على من أبعثه معك من ههنا، فقال عمرو: بل على من أقدم عليه من المسلمين، قال: فقال أبو بكر: «لا، ولكن أنت أحد الأمراء فإن جمعتكم حرب فأبو عبيدة أميركم»، فسكت عمرو، ثم لما حضر شخوصه (خروجه) جاء إلى عمر فقال له: «يا أبا حفص، قد علمت نصرتى فى الحرب ومناقبى فى العدو، وقد رأيت منزلتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أرى أن أبا بكر ليس يعصيك، فأشر عليه رحمك الله أن يولينى أمر هذه الجنود بالشام، فإنى أرجو أن يفتح الله على يدى هذه البلاد، وأن يريكم الله ويرى المسلمين.

ما تسرون به»، فقال له عمر: ما كنت لأكذبك، ما كنت لأكلمه فى ذلك: وما يوافقنى.

أن يبعثك على أبى عبيدة وأبو عبيدة أفضل عندنا منزلة منك»، قال عمرو: «إنه لا ينقص أبا عبيدة شيئًا من فضله إن ولانى عليه، فأبى عليه» عمر ما يريد.

ومع ذلك يروى أبو حذيفة أن أبا عبيدة بن الجراح استقبل عمرو بن العاص مرحبًا، وقال له: «مرحبًا بك يا أبا عبد الله، رب يوم قد شهدته مباركًا للمسلمين فيه برأيك ومحضرك، وإنما أنا رجل منكم لست ـ وإن كنت الوالى عليكم ـ بقاطع أمرًا دونكم، فاحضرنى برأيك فى كل يوم بما ترى، فإنه ليس لى عنك غنى»، فقال عمرو: «افعل، وفقك الله لما يصلح للمسلمين وينكب به العدو».

وحين عاتبه خالد بن الوليد، على إخفائه عنه خطاب عمر بن الخطاب الذى وصل بعزله وتولية أبى عبيدة فى إبان معركة اليرموك، وتركه يقود المعركة

---

(١) الرياض النضرة فى مناقب العشرة ـ المحب الطبرى (٣٥٤/٤).

حتى النصر، بل وحتى فتح دمشق فى بعض الروايات، وقال له خالد: «يرحمك الله يا أبا عبيدة.. ما منعك أن تخبرنى حين جاءك الكتاب؟!»، أجابه القوى الأمين، الرفيق اللين: «لم أشأ أن أكسر عليك حربك، ما الدنيا نريد، ولا للدنيا نسعى، كلنا فى الله إخوة».

قيل عنه إنه كان سليم الصدر والطوية، لم يعرف الحسد أو الحقد إلى قلبه سبيلاً، عفًّا سليم اللسان.. لم يؤذ أحدًا بقول أو فعل، مع سلامة الدين، ودماثة الخلق، وقوة اليقين.. رفيقًا كأجمل ما يكون الرفق، لينًا للبسطاء والضعفاء، بارًا بالفقراء، متواضعًا عفًّا زاهدًا ورعًا.. يصدق عليه قول القرآن المجيد عن المثل الأعلى للمؤمنين: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣ – ٦٤].

ولايته على المال

طبيعى أن يكون أمين الأمة، أمينا على المال، فروت المصادر أن أبا بكر الصديق عند توليه، اختار أبا عبيدة لولاية بيت المال. وأورد الطبرى فى تاريخه[1] أنه استمر واليا لبيت المال حتى انتدابه إلى الجهاد بالشام، ونقل الطبرى بسنده، أنه لما ولى أبو بكر. قال أبو عبيدة: أنا أكفيك المال، يعنى الجزاء. وقال له عمر: وأنا أكفيك القضاء: فمكث عمر سنةً لا يأتيه رجلان. وورد بتهذيب تاريخ ابن عساكر[2]: «لما استخلف أبو بكر وَلَّى أبا عبيدة بيت المال ثم بعثه إلى الشام». وكان بيت المال يتولى النظر وتصريف ما يتعلق بالأموال، من خراج وصدقات وأعشار وأخماس، كما يقوم بالإنفاق على مصالح المسلمين. وأعطيات المجاهدين. وكانت موارده تقوم أساسًا على الزكاة وبعض الموارد الأخرى كالفيء (خمس الأنفال).

(١) تاريخ الطبرى ٣/٤٢٦.

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/١٦٤.

وكانت ولاية أبى عبيدة لبيت المال فى وقت شدة، فقد امتنعت القبائل المرتدة عن أداء الزكاة، وهو ما أدى إلى حروب الردة التى اقترن الجهاد فيها بكثير من العناء والإنفاق على تجهيز الجيوش التى خرجت تباعًا لمواجهة المرتدين، بما تحتاجه من سلاح ومؤن وأقوات. ولم يكن النظام المالى قد توطدت له دعائم وأسس فى ذلك الوقت، ومن ثم كانت مهمة أبى عبيدة شاقة، نهض به بكفاءة وأمانة ولا غرو فهو أمين الأمة، حتى إنه لم يتضرر أو يشكُ أحد، وحتى مكث عمر سنةً قائمًا بولاية القضاء، فلم يأته رجلان.

نجـدته

كان أبو عبيدة، مضرب الأمثال فى الإيثار والنجدة، وهما فرع على الأمانة التى تحلّى بها ونوه إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد ورد بالعديد من المصادر، أنه حين أجدبت المراعى وعم القحط فى شبه الجزيرة العربية، وأصاب الناس مجاعة شديدة فيما سمى بعام الرمادة سنة ١٧/١٦هـ ـ كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.. إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لنجدة أهل المدينة ومكة وما حولهما ويستمدهم، حتى استعجل عمرو بن العاص بفلسطين بعبارة ناطقة بما أصاب الناس من قحط وجوع.. وكتب إليه يقول: «سلام عليك، أما بعد، أفترانى هالكًا ومن قِبلى، وتعيش أنت ومن قِبَلك؟! فياغوثاه! يا غوثاه! يا غوثاه!».. فأجابه عمرو بن العاص: «أما بعد فلبِّث ـ لأبعثن إليك بِعِيرٍ أولها عندك وآخرها عندى».

وتتفق الروايات على أن الغَيَّاث أبا عبيدة بن الجراح كان أسرع الأمراء استجابة لنداء عمر، فقدم بنفسه فى أربعة آلاف راحلة محملة بالطعام، فولاه عمر قسمتها فيما حول المدينة، فلما فرغ من المهمة، أمر له عمر بن الخطاب بأربعة آلاف درهم، فأبى أبو عبيدة أن يأخذها، وقال لعمر: «لا حاجة لى فيها يا أمير المؤمنين. إنما أردت الله وما قِبَلَه، فلا تدخل علىّ الدنيا!». ولكن عمر

أصر وصمم وجعل يلح عليه أن يقبلها ويقول له: «خذها فلا بأس بذلك إذ لم تطلبها» (ما دمت لم تطلبها). فأبى أبو عبيدة، فطفق عمر يقنعه بما كان منه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول له: «إنى قد وليت لرسول الله مثل هذا، فأعطانى بعد أن قلت له مثل ما قلت لى».

وكما كان أبو عبيدة غياثًا فى عام الرمادة، كان مجيرًا غياثًا فى ميادين القتال يؤثر باقى القادة وأمراء الأجناد على نفسه.. وفى الأخبار الطوال للدينورى - أن عمر بن الخطاب كتب إليه وهو قائم على جند الشام، ويلاقى حربًا ضروسًا من الروم، أن يرسل مددًا بالخيل إلى سعد بن أبى وقاص فى العراق حيث حشد الفرس حشودهم هناك، فسارع أبو عبيدة بينما يحارب الروم، بإمداد سعد بن أبى وقاص بألف فارس بقيادة الفارس المغوار: قَيْس بن هبيرة المرادى، وهو من الأبطال الشجعان، وأبلى أعظم البلاء إلى جوار سعد فى القادسية، وهو الذى تصدى للأسود العنسى الذى ادعى النبوة باليمن، وشهد صفين فيما بعد مع الإمام على رضى الله عنه[1].

وجاء بالمسند، بإسناد مرفوع إلى أبى أمامة، أن رجلاً من المسلمين بالشام، أجار رجلاً وعلى الجيش أبو عبيدة بن الجراح، فقال خالد بن الوليد وعمرو ابن العاص: لا نجيره، فقال لهما أبو عبيدة، بل نجيره. وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يجير على المسلمين أحدهم».(الحديث حسن بغيره).

عدله الذى لا يميز بين قوى وضعيف

أميز وأهم ما يجب أن يتحلى به الحاكم والأمير والقائد، سجية العدل، والعدل ليس ثمرة اختيار أو تمييز، أو تفضيل أو انحياز.. وإنما هو إنصاف للحق أيًا كان صاحبه، حاكمًا أو محكومًا، قويًا أو ضعيفًا، غنيًا أو فقيرًا، قريبًا

(١) الأخبار الطوال ـ الدينورى. ص ١٧٥.

أو بعيدًا، عالما أو جاهلا، أثيرًا أو مكروهًا، ومن عظمة الإسلام الذى انضوى أبوعبيدة فى رحابه مؤمنا به، أنه أقام دوحة وارفة للعدالة يستطيع كل آدمى أن يفيء إليها ويستظل بظلها الظليل، وأن يعيش آمنًا مطمئنًا فى رحابها على نفسه وماله وحريته وعرضه وشرفه، مهما كان دينه، أو عرقه، أو جنسيته، ومكانته، أو نسبه، أو ماله، أو غناه، أو فقره، أو قوته، أو ضعفه.. نظر الإسلام للعدل، ليس فقط كفضيلة مطلوبة، وإنما لأن العدل قوام الحياة ذاتها على أسس صحيحة تستقيم فيها حياة الأحياء وتتساوى حقوقهم. لا يتغول فيها أحد على أحد، أو يتعالى أحد على أحد، وأن يكون لكل آدمى كامل الحق فى ألاّ يُضام أو يُجار عليه أو يُفتات على حقوقه أو تُمس كرامته أو يُتجنى عليه..

ويتجلى العدل حين لا يأبه بسلطان حاكم، أو بقوة طاغية، أو بمال ثرى، أو بنفوذ نسيب، أو بقرابة قريب.. ولا ينحاز إلاّ للحق حين تنكشف معالمه، وتنجلى صورته.. فالعدل قوامه المساواة، وإعماله بلا انحياز أو تمييز ـ من عزم الأمور.. وهى سجية تحتمى بها كل السجايا والشمائل.

فرح المسلمون بإسلام آخر ملوك غسان: جبلة بن الأيهم.. وكان رسول الله ﷺ قد كتب إليه فيمن كتب إلى الملوك والأمراء ليدعوهم إلى الإسلام.. ويقال إنه أعلن إسلامه فى خلافة عمر بن الخطاب، ثم لحق بالشام.. وهذا هو الأرجح، فقد ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية[1]، أنه خاض اليرموك فى صفوف الروم. وكان على اثنى عشر ألفًا من المستعربة، فيكون إسلامه قد تم بعد ذلك فى خلافة عمر.. ولكن الرواة يختلفون بعد ذلك فى شأنه، فذكر الواقدى[2] قصةً مؤداها أن رجلًا من «فزارة» وطئ إزاره فكشفه عن كتفه، فلطمه جبلة لطمة هشمت أنفه وكسرت ثناياه الأربع، فشكا الفزارى إلى أمير المؤمنين، فاستدعى إليه جبلة، فأقر بالواقعة وساق مبرره، ولكن عمر أبى إلاّ أن يقتص الفزارى منه، وقال

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٥ ط مكتبة الصفا).

(٢) فتوح الشام للواقدى ص٩٣.

له: قد شملك الإسلام وإياه فما تفضله إلاَّ بالعافية، فاستهول جبلة أن يقتص منه ـ وهو الملك ـ واحد من السوقة، وطلب إمهاله للغد، فأمهله بعد موافقة الفزارى، ولكن جبلة ركب مغاضبًا فى بنى عمه ليلًا وغادروا إلى الشام، واختلف البلاذرى[1] مع هذه الرواية، فذكر أن المعتدى عليه كان من «مزينة» لا من «فزارة» وأن الواقعة لم تكن بالحج وإنما بالشام لدى زيارة عمر لها فى السنة السابعة عشرة للهجرة، وزاد على هذه القصة قصة أخرى لا تستقيم معها، دار فيها حوار حول التزامه بالجزية إنْ أقام على دينه، ومؤدى هذا أنه لم يكن قد أسلم، ومن ثم فارق إلى الروم دون أن يدخل فى الإسلام.

وعندنا أن هذه الروايات لا تستقيم، ولعل الراجح ما أورده ابن قتيبة[2]، والدكتور عبد الرحمن عميرة فى كتابه: رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآنًا[3]، وهو ما أخذنا به هنا، وفحواه أنه أسلم فى خلافة عمر بن الخطاب، وأنه كان على إسلامه حين حدثت هذه الواقعة، وقيل إنه كان رجلاً معجبًا بذاته، مغترًا بحسبه، لا يسير إلاَّ مسلحًا ووسط بطانة من الغساسنة.. وتصادف وهو يسير فى سوق دمشق، أن وطئ فرسه رجلًا من مزينة، فوثب المزينى فلطمه، فاجتمع عليه الغسانيون وذهبوا به رفقة أميرهم جبلة إلى أمير أمراء الشام أبى عبيدة بن الجراح، فقالوا: هذا لطم سيدنا. فلما سأل أبو عبيدة عن البينة على أنه لطمه، انبرى جبلة متسائلاً: وما تصنع بالبينة؟

قال أبو عبيدة: إن كان قد لطمك لطمته بلطمتك.

قال جبلة: ولا يقتل؟!

قال أبو عبيدة: لا

قال جبلة: ولا تقطع يده؟!

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ١٦١/١.

(٢) المعارف ص٦٤٤.

(٣) رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآنًا. د. عبد الرحمن عميرة ٢/١ ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

قال أبو عبيدة: لا، إنما أمر الله بالقصاص، فهى لطمة بلطمة.

فانصرف جبلة بن الأيهم مغاضبًا يقول: أترون أنى جاعل وجهى ندًا لوجه جدى جاء من عَمْق.. ثم لحق بأرض الروم وتنصر، ولم يزل هناك إلى أن هلك!!

مكانته

لم يكن أبو عبيدة من الباحثين عن المكانة أو الصدارة، ولكن المكانة أتته من كل صوب، فكان من السابقين الأولين.. أثيرًا محببًا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ومحل تقدير واحترام، فاختاره لمصاحبة وفد نجران فى السنة الثانية للهجرة وأسبغ عليه أنه أمين الأمة، ويقول عنه: «لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»، ويقول: «ما من أحد إلَّا كنت قائلاً فيه، إلَّا أبا عبيدة بن الجراح»... ويقول عنه: «نعم الرجل أبو عبيدة». شهد المشاهد كلها، وذاد عن رسول الله عليه السلام يوم أحد، وكان ضمن الشهود مع أبى بكر وعمر وعثمان ـ على عهد الحديبية الذى أملاه الرسول وكتبه على بن أبى طالب بالحديبية فى السنة السادسة للهجرة، وحين طُعِنَ فى خاصرته بإحدى الغزوات، أشار إليها النبى قائلاً: «هاهنا خويصرة مؤمنة». وأخرج الحافظ عن أبى ثعلبة قال: لقيت رسول الله ﷺ فقلت: «ادفعنى إلى رجل حسن التعليم، فدفعنى إلى أبى عبيدة بن الجراح، ثم قال: «دفعتك إلى رجل يحسن تعليمك وأدبك». وأجمعت الروايات والأحاديث المرفوعة بسندها، على أنه أحد العشرة الذين بشرهم رسول الله بالجنة.

وكان أثيرًا للصديق أبى بكر، وموضع ثقته وإجلاله، ومن إكباره له ـ ترك له أن ينزع هو حلقتى المغفر من وجه رسول الله يوم أحد، وطلب يوم سقيفة بنى ساعدة مبايعته أو عمر بن الخطاب بالخلافة، وقال يومها للأنصار والمهاجرة: «قد رضيت لكم أحد الرجلين عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح. أما أبو عبيدة فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة

أبو عبيدة بن الجراح». أما عمر فسمعته يقول: «اللهم أيد الإسلام بأحد العمرين: عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام».. وولاه أبو بكر بيت المال فور استخلافه.. وحينما اختار أبو بكر قادة للجيوش الأربعة التى بعثها إلى الشام، جعل له قيادة أحدها، وَأَمَر باقى الأمراء: عمرو بن العاص ويزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة، فقال لهم: «فإذا اجتمعتم فأميركم أبو عبيدة». ويشير على من يسألونه أن يختار لهم، بأبى عبيدة، ويقول لهم: «عليكم بالهين اللين، الذى إذا ظُلم لم يظلمْ.. وإذا أُسيء إليه غفر.. وإذا قُطع وصل.. رحيم بالمؤمنين، شديد على الكافرين.. عليكم بأبى عبيدة بن الجراح».

وروى ابن جرير الطبرى فى تاريخه، أن أبا بكر تحدث يومًا فقال: «وددت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة كنت قد قذفت بهذا الأمر فى عنق أحد الرجلين ـ يريد عمر وأبا عبيدة ـ فكان أحدهما أميرًا، وكنت وزيرًا».

أما مكانته لدى عمر بن الخطاب، فكانت مكانةً متميزة لم يتمتع بها لديه من الصحابة سوى الصديق أبى بكر.. ومن تجليات هذه المكانة الخاصة ما اعترض به أبو عبيدة بشدة لا يقدر عليها غيره مع عمر بن الخطاب.. حين اعترض عمر على شروط صلح الحديبية.. روى الواقدى فى المغازى، أنه لما اصطلح الرسول صلى الله عليه وسلم على الصلح ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر قائلاً: يا رسول الله، ألسنا بالمسلمين؟ قال صلى الله عليه وسلم: بلى! قال عمر: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟ فقال الرسول: أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره، ولن يضيعنى. فذهب عمر إلى أبى بكر، فكرر له ما قاله لرسول الله ﷺ، فقال له أبو بكر: الزم غرزه (أى الزم أمره).. إنه رسول الله، والحق ما أمر به، ولن نخالف أمر الله ولن يضيعه الله!

وأورد الواقدى أن عمر لقى فى هذه القضية أمرًا كبيرًا، وجعل يرد الكلام على رسول الله ﷺ، ويقول: علام نعطى الدَّنيَّة فى ديننا؟ والرسول يقول: أنا رسول الله ولن يضيعنى! وجعل عمر يرد على النبى.

هنالك انبرى أبو عبيدة بن الجراح ـ انبرى لعمر ولامه بشدة وجعل يقول له: «ألا تسمع يا بن الخطاب رسول الله يقول ويقول؟! تعوذ بالله من الشيطان واتهم رأيك!».

يروى الواقدى، نقلاً عن عمر بن الخطاب نفسه، أنه جعل يومها يتعوذ من الشيطان الرجيم مما أصابه حتى هدأ واعتذر. وقال له رسول الله معاتبًا: «يا عمر، إنى رضيت وتأبى»؟! وتم إبرام الصلح الذى أملى على على بن أبى طالب، وكان أبو عبيدة من الشهود عليه مع أبى بكر وعمر وعثمان، وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف، وعلى بن أبى طالب الذى كتب الصحيفة.

ذكرت لك هذه الرواية ببعض التفصيل قبل مكانها، للتدليل على المكانة الخاصة التى كانت لأبى عبيدة لدى عمر، وعلى نجدته وطبعه الأصيل فى المسارعة إلى أداء الواجب. نرى عمر بن الخطاب يبادر يوم سقيفة بنى ساعدة إلى اقتراح مبايعته بالخلافة، لولا أن نهره أبو عبيدة، قائلاً له: «ما رأيت لك فهّة قبلها قط! أتبايعنى وفينا ثانى اثنين إذ هما فى الغار».. قاصدًا الصديق.

ما إن تولى عمر بن الخطاب الخلافة، حتى أرسل إلى أبى عبيدة يوليه الإمارة العامة لجيوش المسلمين، ولكن أمين الأمة يخفى الكتاب ولا يبلغ به أحدًا حتى لا يفسد على القائد خالد بن الوليد قيادته المثمرة فى معركة اليرموك، فلما علم خالد بعد المعركة ويقال بعد فتح دمشق، وعاتبه على إخفاء الأمر عنه، قال له أبو عبيدة: «لم أشأ أن أكسر عليك حربك.. ما الدنيا نريد، ولا للدنيا نسعى، كلنا فى الله إخوة».

لم تتشكل هذه المكانة لدى عمر من فراغ. فكان مددها روافد عديدة تشكلت على مر السنين فى مشاهد ومواقف عديدة عاصرها عمر بن الخطاب منذ أسلم ولمسها فى هذا القوى المتواضع الأمين.. هذه المكانة هى التى حدت بعمر أن يبدى وسط الصحابة أنه لو تمنى مثلهم، لتمنى بيتًا مملوءًا رجالاً مثل أبى عبيدة ابن الجراح.. وهى هى المكانة التى جعلته يرفض توسيط عمرو بن العاص له لدى

أبى بكر ليتولى القيادة، ويقول له مصارحًا: «ما كنت لأكذبك، وما كنت لأكلمه فى ذلك، وما يوافقنى أن يبعثك على أبى عبيدة. وأبو عبيدة أفضل عندنا منزلةً منك وأقدم سابقةً»! هذه المكانة وصفها العقاد قائلا فى عبقرية خالد: «إن رأى عمر فى أبى عبيدة بن الجراح معروف، كان لا يعدل به أحدًا من الصحابة الأولين».

وأوردت الروايات، وجاء بتاريخ الخلفاء الراشدين للسيوطى، وفى مسند الإمام أحمد ـ عن عمر بن الخطاب أنه قال قبل أن يجود بروحه بعد أن طعن: «إن أدركنى أجلى وأبو عبيدة بن الجراح حى استخلفته، فإن سألنى ربى، قلت: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن لكل أمة أمينًا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».. وَرُوِى أنه ذكر أيضًا خالدا بن الوليد بمثل ذلك، وقال إنه لو سأله ربه لقال إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «خالد سيف من سيوف الله، سله على المشركين»!

وأنت تستطيع أن ترى هذه المكانة الخاصة لدى عمر، من أن أبا عبيدة يكاد يكون الوحيد الذى استثناه عمر بن الخطاب من سياسته العامة فى عدم تولية الأمصار لكبار الصحابة، وبالتحديد العشرة المبشرين بالجنة.. كعلى وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف.. ولم يكد يستعمل سعد بن أبى وقاص لتكملة المهمة فى فتوحات العراق وفارس. إلّا عاد به إلى المدينة. وقد أفصح عمر عن بعض مبرراته للاحتفاظ بكبار الصحابة إلى جواره بالمدينة، سواء لمناصحته والمشورة عليه، أو ضنًا بهم أن يفتن الناس بهم أو أن يفتتنوا بذلك! وربما قدَّر عمر أن أبا عبيدة أنأى من غيره عن احتمال افتتان الناس به، أو أن يفتنه ذلك، لفرط تواضعه ورفقه ولينه، نطقت بذلك ما مر بك من تزكية الصديق له، كما عبرت عنه مقولته بالشام للأجناد ولعامة المسلمين: «إنى امرؤ من قريش، وما منكم من أحمر ولا أسود يفضلنى بتقوى، إلّا وددت أن أكون فى إهابه».

روى تميم بن سلمة، أن عمر بن الخطاب لقى أبا عبيدة، فصافحه عمر وقَبَّلَ يده وتنحيا يبكيان.

وعن مناقب أبى عبيدة، روى عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب ـ عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أنه أحد ثلاثة أصبح الناس وجوهًا، وأحسنهم خلقًا، وأشدهم حياء.. إن حدثوك صَدَقوك لم يكذبوك، وإن حَدَّثتهم لم يكذبوك.

ورُوِىَ عن عمرو بن العاص، أنه قال: «داهيتا قريش فى الجاهلية والإسلام: أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح».

وصفه معاذ بن جبل قائلاً: «والله إنه لمن خير أهل الأرض».

أحد العشرة المبشرين بالجنة:

أجمعت المصادر، وما ورد بكتب الحديث، على أن أبا عبيدة بن الجراح، أحد العشرة الذين بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة وتوفى وهو عنهم راضٍ.

أخرج الإمام أحمد والترمذى والبغوى فى المصابيح الحسان، كذلك أبو حاتم بتقديم وتأخير ـ عن عبد الرحمن بن عوف، أن النبى ﷺ قال: «أبو بكر فى الجنة، وعمر فى الجنة، وعثمان فى الجنة، وعلى فى الجنة، وطلحة فى الجنة، والزبير فى الجنة، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة، وسعد بن أبى وقاص فى الجنة، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل فى الجنة، وأبو عبيدة ابن الجراح فى الجنة».

وأخرج الترمذى عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عشرة فى الجنة: أبو بكر فى الجنة، وعمر فى الجنة، وعثمان وعلى والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص»..

قيل إن سعيد بن زيد عَدَّ هؤلاء التسعة وسكت، فقال القوم له ننشدك الله يا أبا الأعور (كنية سعيد بن زيد) من العاشر؟ قال سعيد: نشدتمونى بالله: «أبو الأعور (أى سعيد بن زيد) فى الجنة».

وعن عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما، أنه فى مناقب هؤلاء العشرة ـ قال رسول الله ﷺ «أرحم أمتى بأمتى أبو بكر، وأقواهم فى دين الله عمر، وأشدهم

حياء عثمان، وأقضاهم على بن أبى طالب، ولكل نبى حوارى وحوارىى طلحة والزبير. وحيث ما كان سعد بن أبى وقاص كان الحق معه، وسعيد بن زيد من أحباء الرحمن، وعبد الرحمن بن عوف من تجار الرحمن، وأبو عبيدة بن الجراح أمين الله وأمين رسوله»[1].

وعن الإمام على بن أبى طالب أنه لما قرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. قال: أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان إلى تمام العشرة. ذكره أبو الفرج فى أسباب النزول.

وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه (٢٤١٩)، بسنده عن أنس ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن لكل أمة أمينًا وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة ابن الجراح». وأخرجه البخارى أيضًا.

* * *

(١) أخرجه الملاء فى سيرته.